لأني أُحِبُّها

زينب علي البحراني



لأنّي أحبهـــــــا

زينب علي البحراني

لأنّي أحبهـــا (قصة طويلة)
زينب علي البحراني

لوحة الغلاف
للفنان التشكيلي هاني حجاج

تصميم الغلاف
مصطفى الجزار

مدخل

"يجب أن نسعى وراء الحب حيثما كان الحب حتى لو كلفنا ذلك ساعات وأياما وأسابيع من الإحباط والحزن، لأنه منذ اللحظة التي ننطلق فيها سعيا وراء الحب ينطلق هو أيضا لملاقاتنا".

الروائي البرازيلي/ باولو كويلّو.

إهداء عام

إلى قصيدة: "هل عندك شك؟"

للرَّاحل الخالد/ نزار قبَّاني.

شكر خاص

إلى الصديقات الغاليات اللواتي ساهمن مساهمة لا تنسى في انتشار رواية: "هل تسمح لي أن أحبك؟" بين القرّاء:

"أميرة قاسم.. حنان سعيد العيسى.. سامية الماجد"

مع محبتي،،

قبل البداية

قد يكون الأديب العربي هو الأديب الوحيد المضطر لتبرير نص من نصوصه، لأن حالات الاحتقان المُجتمعي والسياسي والإنساني التي نعيشها جعلت من المواطن العربي مخلوقا مُتحفزا لمهاجمة كل من لا يتفقون مع رأي من آرائه، بغض النظر عن صحة هذا الرأي أو عدمها، ما يجعل من كل نص مكتوب مشروع ذنب أو جريمة يُسقط عليها المُجتمع كل رغبته في الانتقام من دوافع تعاسته الشخصية.

معظم الأدباء العرب يحملون على كواهل قلوبهم أقلامًا مثخنة بالأحزان، وأصحاب الأقلام المثخنة بالأحزان لا يهمهم إنجاز نصوص "عبقرية"، أو أعمالاً "لا يشق لها غبار" في عالم الأدب الروائي، بل كل ما يعنيهم هو إطلاق سراح

بعض أحلامهم الصغيرة على الورق ليستريحوا من عبء تضخمها في صدورهم، محولينها بلغتهم البنفسجية الشهية إلى عواطف قادرة على إسعاد قرائها وملء أرواحهم بأحاسيس لذيذة لا يفهمها المعقدين نفسيًا ولا المتربصين للهجوم.

لأجل أحلامي، ولأجل قرائي المفعمين بمثل تلك الأحلام فقط أطلقت هذا النص، أما ما عداهم ممن يطالبون كل كاتب أو مؤلف بما يشبه الاعتذار أو الشعور بالذنب وتأنيب الضمير على كل ما يكتُب لأنهم يرون غير ما يرى؛ فليس لأذواقهم العويصة هنا مكان. هذه ليست "رواية رائعة" ترضي أذواق مُحترفي الكتابة، بل مجرد كلام في الحُب الذي فقدناه وفقدنا أنفسنا بفقده، مجرد حكاية يستطيع أن يفهمها القارئ البسيط الذي أعتبره صديقي الحقيقي، ورهاني الأكبر.

(1)

أن يركض قلبك حافيًا عشرين عامًا من الشوق وراء امرأة واحدة، أن تفكر بها، تحلم بها، تتنفسها وهي بعيدة عنك، ترى وجهها في شروق الشمس، وبزوغ القمر، وصفحات المرايا، وتراه في صحن طعامك وكوب شرابك وبصمات أصابعك، تسمع صوتها في كل أصوات الناس، وخرير المياه، وهديل البلابل، وصرير أقلامك على كل ورقة تكتبها، وتشم رائحتها في كل نسمة معطرة تداعب أنفك حتى وإن كانت في أقصى مشرق الأرض وأنت في أقصى مغربها. أن تراهق، وتكبر، وتنضج، وتتجاوز منتصف الثلاثينات من عمرك، وترى وتسمع وتشاهد وتجرب كثيرًا من الناس والمواقف والأحداث والأشياء والأماكن حتى التخمة وصولاً إلى الملل، وتظل رغم كل هذا، رغم كل هذا، رغم كل هذا غير قادرٍ على نسيانها أو التحرر من هيمنة حضورها الكثيف في روحك وكل خلايا كيانك.. إن لم يكن كل هذا حبًا فماذا تسميه؟

قد تسميه فسقًا إن كان ثوبك قصيرًا ولحيتك طويلة، وقد تسميه طيشًا إن كنت من ذوي الحواجب المعقودة والنظرات النارية، أو

تسميه سخفًا إن كنت ممن يتقدمون حشود الهاتفين بشعارات المطالبة بالعدالة والمساواة في أكبر شوارع المدينة، أو تسميه جنونًا كاملاً إن كنت ممن لا يستمتعون بغير عد أوراقهم النقدية عشرين ساعة في اليوم، أو تسميه اضطرابًا هرمونيًا حادًا إن كنت ممن لا يفهمون غير لغة فئران التجارب المعملية، أو تسميه ما شئت أيًا من كنت وكيفما كنت، فرأيك لا يهمني، وما تظنه عني لا يهمني، لأنك من أعلى رأسك حتى أدنى قدميك لا تهمني مثلما هي تهمني، ومثلما رأيها وحده الذي يعنيني، ومثلما كل نفسٍ من أنفاسها يوازي خفقة من خفقات قلبي.

البارحة كررتُ على مسامع جدّها رغبتي في عقد أواصر حياتي بحياة حفيدته إلى الأبد، انتظرت عودته من الجامع بعد صلاة العشاء بقلبٍ مرتعش، وكلماتٍ أنساها كلما حاولت حفظها مرة بعد مرة، وفي زاوية الشارع المضاء بمصابيح ليلية خجولة استجمعت شجاعتي وكل خبرتي في احترام كبار السن، وضبطت صوتي على ألطف نغمة تجمع بين الدفء والاحترام بينما أنهي عرض طلبي المتلعثم:

- وأنا مستعدٌ لتلبية كل شروطكم يا عم.

ثبّت عصاه في الأرض محاولاً رفع ظهره المحدودب بصعوبة، ثم قال:

- أنت أعز على نفسي من أولادي، ولو طلبتَ مني ما تبقى من عمري لوهبتك إياه بلا ثمن. لكن الزواج مشروطٌ بقبولها، وسبق أن أخبرتك بردها في المرتين الماضيتين.

كدتُ أنهار منتحبًا على قدميه وأقبلهما بتوسل كي يفعل شيئًا لأجلي، لكنني تمالكت نفسي كي لا تهتز صورة "الرجل" التي يظنها، وقلتُ بصوتٍ يملأه الرجاء:

- أعرف، لكنني أرجوك أن تنقل لها طلبي مرة ثالثة، وإن كان لها شروط سأحققها كلها، أما إن كان ثمة أسباب تجعلها تظن أنني لا أصلح لها؛ فسأبذل ما بوسعي لإصلاحها.

نظر لي نظرة لم يستطع مخزون خبرات أعوام حياتي الماضية ترجمتها، ثم قال بصوتٍ فيه نكهة بدت لي خليطًا من الشفقة والمجاملة:

- خيرٌ إن شاء الله، غدًا يصلك ردها في مثل هذه الساعة.

كنتُ خائفًا، خائفًا جدًا، وجاء الجوابُ في الليلة التالية متفقًا مع توقعات خوفي، ودون مبررات أو تفاسير تفتح نافذة من نوافذ الأمل

أمام أمنيتي. لذت بفراشي مبكرًا كي أنام وأنسى كل شيء.. لكن البرد تسلل إلى نخاع عظامي رغم البطانيتين، وشعرتُ أنني شخصين؛ شخصٌ ممددٌ على السرير بعينين جاحظتين وأنفاس رتيبة مسموعة، والآخر يُحلّق بعيدًا في زمنين وعالمين آخرين؛ عالمٌ تركض فيه "جنّات" بعينيها الضاحكتين المفعمتين بالتحدي، وعالم تتكدس فيه كل الأوجاع التي أعيشها، وكل الناس الذين أعرفهم وأتمنى القفز من عالمهم المكتظ بالسخف والرتابة والملل إلى عالمها "هي"، حيث الأشواق، والغموض، والجنان المستحيلة التي لا يعرف طريقها مخلوق.

(2)

توفي والدي عندما كان في الثامنة والستين من عمره، ورغم أن علاقتنا الروحية لم تكن وطيدة؛ إلا أنني كنت أحترم مقدرته على الحياة كل تلك السنين دون أن يُقدم على الانتحار للتخلص من رتابة الحياة التي تُكرر نفسها مع أحداث تكرر نفسها وأشخاصٍ يُكررون أنفسهم لأكثر من نصف قرن. أحيانًا يغالبني الظن بأنه لم يفكر بالانتحار لأنه كان من فصيلة كائنات حية أدنى من مستوى الكائن البشري! أقول هذا كي أتجنب اعتبارك إياي ولدًا عاقًا جاحدًا معدوم الإنسانية والأخلاق والضمير إذا اعترفت لك بأنني أعتبره من فصيلة الخنازير، إذ لم يكُن بوسعي غير اعتباره أقل من أن يكون إنسانًا سويًا وأنا أراه يتزوج ثم يطلق، يتزوج ثم يطلق، يتزوج ثم يُطلق لأن الدين والقانون في هذا البلد يمنعانه عن الجمع المُعلن بين أكثر من أربع مُضطَهدات، أو أربع غبيات، أو أربع نعاج بشرية في وقتٍ واحد. كان من وجهة نظري عاهرًا كبيرًا يزني ببنات الناس مجانًا كل ليلة تحت ستار حبرٍ على ورق يسمّونه عقد قران ثم يتخلص منهن بعد بضع ليالٍ أو شهورٍ من استعماالهن كـ "مراحيض" خاصة يملأ أحواضها مرات ومرات بنجاسته ثم يتركها ويرحل، وكان شيء من

الحياة في عيني أمي يخبو ويموت مع كل ليلة من ليالي هذا "الزنا" تذبح عصبًا من أعصاب كرامة زوجته الأولى التي صرت بوفاتها يتيمًا قبل أن أكمل عامي الثاني عشر.

تلك الدعارة التي كان الحاج "حسين" يتقلب على أسرّتها الحمراء كل ليلة تحت ستار قوانين رسمية تستهتر بروحانية الدين وتحوّله إلى حارس للفسق والرذيلة بدل أن يكون حاميًا للفضيلة، وراعيًا للنزوات الشيطانية بدلاً عن أن يكون مسيطرًا عليها؛ جعلت حياتي وحياة بقية البنات والأبناء الذين جاؤوا إلى الحياة الدنيا في ساعة من ساعات شبقه الجنسي الطائش أشد تعقيدًا من الموت. كنّا دائمًا جائعين إلى الحنان، جائعين إلى الحُب، جائعين إلى الإحساس بالأمان، جائعين إلى أبٍ يظلل بدفء وجوده معنا في بيت واحد كل ليلة، وليس عابر سريرٍ لا هم له إلا الدقائق التي يقضيها بين فخذي والدتنا كل بضع ليالٍ.. جائعين إلى اهتمام أم قوية الروح، متوازنة نفسيًا ومكتفية عاطفيًا، وليس حطام أنثى فقدت ما تبقى من إحساسها بإنسانيتها تحت وطأة الفقر المادي والحرمان العاطفي والشعور بالنبذ والاحتقار والإهمال. هذا الجوع أكل من طفولتي كثيراً وأكل من مراهقتي أكثر. لا أذكر ليلة لم تطرق فيها الكوابيس أبواب نومي قبل أن أبلغ عامي الخامس عشر، ولا أذكر أنني نلت في المدرسة درجة تزيد على "مقبول"، ولا أذكر جملة واحدة استطعت

أن أكملها دون تأتأة، ولا أذكر أن ولدًا من بين زملاء دراستي مد لي يد الصداقة مقابل كل أولئك الذين يمدون أيديهم وأقدامهم لضربي مستقوين بضعفي وخجلي اللذان يغذيان شهوتا العنف والسخرية فيهم، لكنني أذكر جيدًا كيف امتدت لي تلك اليد الطفولية الناعمة ذات السوار البنفسجي لتساعدني على النهوض من خليط الوحل والدم والبصاق والغبار في شارعِ بيتنا وأنا أتضور ألمًا بعد أن نالت رفساتهم من رأسي وصدري وأسفل بطني. مزيج من الشعور بالبرد والخجل والامتنان والرغبة في الاختفاء هيمن على ضعف لحظتي. كانت يدها دافئة، ورائحتها تشبه رائحة غيمة في مواسم المطر. أردتُ أن أقول شكرًا ولم أستطع، ومن بين ضباب الدموعِ التي حبستها كي لا أفصح عن بقايا طفولتي رأيت الضفيرة الكستنائية الطويلة تمضي بخطوات فراشة لتدخل بيت جيراننا المقابل وتغلق الباب بهدوء.

فشل ذهني في تجاهل صورتها خلال الأيام التالية. كنت أريد الاقتراب منها، التحدث معها، تبرير موقفي لها، قول أي شيء يقلب صورتي من الضعف إلى القوة. انتظرت أحيانًا وقت ذهابها إلى المدرسة لألقي التحية عليها بادئًا حوارًا يفتح بابًا من أبواب الصداقة، لكن تسارعِ نبضات قلبي وجفاف ريقي وخجلي من التحدث مع الآخرين كان يدفعني لخسارة وقت الانتظار الذي بذلته والمسارعة بالهرب كي لا

تكتشف وجودي. كان فيها دائمًا شيء مختلف، إشعاع مختلف، رائحة مختلفة لا يمكن أن يشمها الأنف، بل تستنشق الروح شفرتها السرية فتعجز عن ترجمة غموضها، قوة داخلية هائلة تضفي جاذبية على قشرتها الخارجية الضعيفة، وسحرًا يستحيل الفكاك من إغرائه. ذاك الشيء المختلف، الذي لم أصادفه في امرأة أخرى قبلها ولا بعدها كان يضاعف فضولي ويدفعني لمراقبتها أكثر، وبمرور الأيام غدت تلك المراقبة السرية هواية ثالثة بعد القراءة والرسم بالرصاص، وعندما اكتشفت أنها تتردد على المكتبة التي أتردد عليها في الشارع العام الممتد آخر الحي الذي نقطن فيه تضاعف السحر، وغدت تلك المراقبة هوايتي الأولى، وبدأ احساس مختلف في داخلي يتبرعم، ثم يتضخم، يمد يده إلى روحي بنعومة ليمسك بيدها ويسافر بها إلى عالم أبعد وأعمق، ويجعلها مع كل رحلة تكبر عامًا كاملاً كل يوم، وتجعل من الرجل الذي يسكنني مزيجًا بين شيخ تجاوز التسعين، وطفل لم يبلغ التاسعة!

(3)

كنت أعلق معطفي على المشجب عندما فتح "طلال" باب المكتب وسأل بلهجة عجولة:

- **هل أنهيت الإحصائية التي طلبها طويل العمر؟**

قلت دون أن ألتفت:

- **وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!**
- **وعليك اللعنة أيها المجنون! هل أنجزت الإحصائية؟**

أخرجتُ ملزمة أوراق مطبوعة ومددتُ بها يدي إليه، فقال وهو يلقي نظرة سريعة على صفحاتها بعد أن جلس على المقعد المقابل لمكتبي:

- **لو تسمع كلامي وتتخلى عن عنادك! شخص بمثل اجتهادك كان بإمكانه تحويل التراب في حسابه المصرفي إلى ذهب.**

- تعني أن أوسع دائرة المنافقين بالانضمام إليها؟

- ليس نفاقًا، بل مراعاة للمصلحة العامة.

- مراعاة للمصلحة العامة، أم مراعاة لمزاج رجلٍ واحد يتلذذ برؤيتكم تتصرفون أمامه كالعبيد؟

أدنى رأسه مني فوق المكتب ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

- كلنا هنا عبيد، أنا، وأنت، والآخرون.. كلنا ما دمنا نعمل من الصباح حتى المساء تحت مظلة الخوف من يوم نجد فيه أبواب هذا المكان موصدة في وجه حاجتنا للطعام، والشراب، والتأمين الصحي، والمظهر الذي يعتبره المجتمع "مقبولاً"، الفرق بيننا أن هناك عبد يعرف كيف يمتص أكبر قدرٍ ممكن من ثمن عبوديته، وعبد تذوي أيامه تحت رحمة أجرٍ شهري يشبه الصدقة.

دافعتُ عن مبدئي قائلاً:

- على المرء أن يحفظ ماء وجه كرامته مهما كان الثمن..

أطلق قهقهة قصيرة مفتعلة قبل أن يقول:

- كرامة؟! ما هي الكرامة؟ أرجوك عرّف لي معنى الكرامة؟ هل تستطيع الآنسة "كرامة" دفع فواتير الكهرباء التي أجدها تحت باب شقتي آخر كل شهر؟ أم ستتفضل علي السيدة "كرامة" بدفع تكاليف مدرسة ابنتي بداية كل فصلٍ دراسي؟ الكرامة هذه الأيام هي زوجة الدينار وأم الدرهم، وامتلاكها لمن لا يملكهما مجرد وهمٍ كبير.

- كل يوم أشعر أنك تهاجر إلى عالم أبعد بكثير عن العالم الذي كنا ننسج على أرضه أحلامنا معًا قبل أعوام.

- ربما يكون ما تقوله صحيحًا، وربما تكون أنت الذي لازلت قابعا في مكانك على مقعد انتظار محطة الماضي بانتظار فرصة لم تصل في قطار الحاضر ولن تصل في قطار المستقبل. أما أنا فقد تعلمت من خيباتي في الحياة أن الواقع لا يمكنه أن يكون بجمال الأحلام، أو حتى بجمال

الأفلام، لأننا مهما أدينا أدوارنا باجتهاد وإتقان في فيلم حياتنا سنجد أنفسنا أمام ممثلين آخرين يفسدون حبكة القصة بغباء ردود أفعالهم ورداءة أدائهم، وأمام مخرجين تتحكم أمزجتهم الخاصة في اختيار أدوار البطولة التي قد يحرمونك منها رغم اجتهادك وموهبتك ويقدمونها لممثلين عديمي الاجتهاد والموهبة إرضاءً للعلاقات الشخصية، وأمام منتجين إن لم تكن تصرّفاتك ورقة رابحة لجيوبهم فسيوقفون تمويلهم لمشاهد الفيلم، وتنتهي أنت بكل أحلامك في مزبلة الكائنات "منتهية الصلاحية" وفق مواصفات ومقاييس العصر والزمان.

قاطعه رنين هاتفه المحمول بنغمة أغنية: "كثر الله ألف خيرك" فسارع بالرد مُرحبًا:

- أهلاً أهلاً يا طويل العمر... نعم نعم.. الإحصائية جاهزة وستكون على مكتب سيادة سكرتيركم الخاص خلال دقيقتين.. أكيد أكيد...

كان صوته يتقازم مع كل خطوة يخطوها خارج المكتب، وغوصي في بحر أفكاري يغدو أعمق فأعمق. قد يكون "طلال" على حق، بل إنني في أوقات كثيرة أظن أن كل الآخرين على حق بينما أعيش بينهم كمجنون هادئ يجهلون جنونه. لا أدري كيف استطاع هو تحقيق معادلة أراها شبه مستحيلة التحقق معي رغم أننا جاران ورفيقا طفولة واحدة! كيف استطاع الجمع بين شخصيتين يصعب أن يجتمعا في ذات رجلٍ واحد: شخصية الرجل المثقف الذي يراقب المجتمع من أعلى جبلٍ شاهق، وشخصية رجل الشارع السفيه الذي قد لا يتورع عن غرز إبرة مخدر في قلب ضميره كلما احتاج إلى ذلك دون تفكيرٍ طويل! ربما كان مضطرًا، ربما لو لم أكن قد غرقت في حب "جنّات" وسقطت في فخ زواج عشوائي تلبية لرغبة والدتي مثلما حدث له لصارت مبادئي في الحياة نسخة أخرى من مبادئه، وأولوياتي في زورق الصراع للبقاء على قيد الحياة مثل أولوياته، لكن ما دام زورقي غير زورقه؛ يكفيني الاستئناس برفقته في بحر الحياة الواحد، ويكفيني أنه من القلائل الذين أشعر معهم بالتسلية حين أحتاجها، وبالراحة والأمان في كل وقت. ويكفي أنه رغم اختلاف مبادئنا ووجهات أنظارنا في مواقف كثيرة يطرح وجهة نظره فقط دون إصرار على تغيير أفكاري وأفعالي كما يحاول معظم الناس الذين يعيشون في شرنقة ضيقة من أوهام تصوّر لهم أن كل من لا يتفق مع ما اعتادوه لابد من

السعي لتغييره وفق الصورة التي في أذهانهم، وتحويله إلى مسخ مُكرر يُشبههم، ويؤكد لهم أنهم على حق.

عاد عماد قاطعًا حبل أفكاري ليقول:

- لا تنس الاستعداد لحضور حفل زفاف حفيد طويل العمر الليلة، يجب أن نكون جميعًا هناك قبل العاشرة مساءً.

(4)

في التاسعة والربع كانت سيارة عماد تسابق الزمن للوصول بنا إلى صالة أفراح "الهيليتون". قلت له وأنا أحاول تثبيت حزام الأمان:

- لا أطيق حضور مثل تلك الأماكن.
- أعرف أنك تكره الأماكن المزدحمة، لكن الرجُل يُريد أن يشعر بقيمته مُضاعفة، وهذا لا يكون إلا بحضور أكبر كمٍ من الحاضرين في هذا الزفاف.
- إنه يشتري وقتنا من الثامنة صباحًا حتى الخامسة مساءً، ليس من المعقول أن نهبه ليلة عطلتنا مجانًا كي يشعر – سيادته– بقيمته أكثر!
- لا تتذاكى.. الأرقام البشرية مثلنا لا يحق لها التذاكي.. لو كُنّا حقًا أذكياء لكنّا نحن مكانه، نملك مثل ممتلكاته، ونملي شروطنا على حفنة أرقام تافهة تقبّل أقدامنا مقابل عملها لدينا.

دخلنا قاعة الأفراح وبدأنا توزيع الابتسامات وعبارات المُجاملة الكاذبة ببذخ. صحفيون كثيرون، ومصورون يصعب عدّهم، ومطربٌ من أولئك الذين لا يحيون ليلة بأقل من نصف مليون دولار. قال عماد ونحن نملأ طبقينا بأصناف لم نذق مثلها في حياتنا من السفرة المفتوحة:

- احرص على الابتسام معظم الوقت كي تبدو في صورة لائقة حين يطالع طويل العمر صور الزفاف على صفحات مجلّة "ليالينا" وقناة "مسايا".

وقبل أن أفتح فمي للرد وجدت طبقي يقع من يدي إثر اصطدامي برجُلٍ ذي شعرٍ رمادي وبدلة سوداء أنيقة، فهتف عماد بلهفة:

- دكتور صالح! لا أصدق نظري!! أنا من أشد المعجبين ببرنامجك.

وأردف بعد أن التفت لي:

- الدكتور صالح الماجد، الخبير في "علم الثراء" ومقدّم برنامج "السرنديب".

مددتُ للرجُل كفي وأنا أقول بابتسامة مهذبة:

- تشرّفنا يا دكتور.

مد يده وقال بنبرة اعتذار:

- آسف جدًا على ما حدث لطبق طعامك بسببي.

قال عماد بسرعة :

- لا اعتذار يعوّضنا ويجعلنا نسامحك إلا تناولك العشاء معنا على طاولة واحدة.

جلسنا حول طاولة مستديرة في منتصف القاعة، فوجه عماد حديثه للدكتور:

- لم أكن أتصّور أنك قد تحضر مثل هذه المناسبات المكتظة بالناس يا دكتور، لاسيما وأنني سمعت كثيرًا عن مشاغلك التي لا تنتهي، وولعك بالتأمل في الأماكن الهادئة!

ابتسم الدكتور ابتسامة صغيرة قبل أن يعلق:

- بالفعل، أنا أفضل الأماكن الخالية من التلوث الضوضائي والتلوث الطاقي. جلوس الإنسان في أماكن مزدحمة بأشخاص لا يعرفهم ولم يسبق له انتقاؤهم بعناية شديد الخطر على صحة الإنسان وطاقته، لكن بالمقابل الجلوس في مكان يزدحم بالناجحين والأثرياء والسعداء هو أقصر طريق لضرب موعد مع الحظ والسعادة.

نظر لي عماد نظرة ظفرٍ وهو يقول:

- ألم أقُل لك أن "من جاور السعيدُ يسعد"؟!

التفتُ إلى الدكتور وسألت:

- ماذا كنت تعني بالتلوث الطاقي يا دكتور؟

مسح شفتيه بمنديل أنيق قبل أن يجيب بلطف:

- إن الكون الذي نعيش فيه ليس كونًا عبثيًا، بل كون مبني وفق حسابات شديدة الدقة، وتسيّره قوانين ثابتة تؤدي إلى

نتائج حتمية لا يمكن أن تتغير ما لم تتغير الأسباب المؤدية إليها.. ومن القوانين التي يجهلها كثير من البشر أننا نتحرك دائمًا في محيط من الذبذبات ذات السرعات المتغيّرة، وهذه الذبذبات تتحكم بحظنا وحياتنا، بنجاحنا وسعادتنا وتعاستنا، وحين نسمح للذبذبات التي تنطلق من الهالات المريضة المحيطة بالبائسين والسلبيين والفاشلين والأنانيين باختراق هالاتنا الخاصة دون حدود فذاك يعني أننا فتحنا أبواب حياتنا على مصاريعها لدخول المرض والبؤس والفقر والتعاسة إليها، وغالبًا ما يحدث ذلك عن جهل أو قصور في المعرفة.

كان للرجل حضورًا قويًا ولهجة جذابة ساحرة جعلتني أقول بانبهار:

- ما تقوله يبدو جديدًا وكبيرًا عليّ يا دكتور!
- كثيرون يُسارعون برفض كل فكرة جديدة، لذا ثمة جبهة قوية من المعارضين لنظرية الذبذبات وتأثيرها على العالم الواقعي لكل مخلوق، لكن الإنسان الحقيقي؛ أعني الإنسان

المتجدد الذي يملك روحًا تواقة للمعرفة باستمرار لا يمكن أن ينفي صحة شيء قبل تجربته.

قال عماد:

- سمعت أنك تُقدم دورات تدريبية خاصة بجمع الثروة؟
- لا، أنا الآن لا أقدم أي دورات تدريبية جماعية أو استشارات شخصية، لكن في مركز "الإنسان الجديد" الذي أديره هناك مُدرّبون أكفاء يُقدمون برامج تدريبية لصنع الثروة، وجذب شريك الحياة الملائم، والتشافي الذاتي.

سألت بنبرة شك ودهشة:

- جذب شريك الحياة؟

أجاب بثقة:

- نعم، لدينا متخصصين في تدريب الشخص على تحقيق ما يسمى "التوافق الذبذبي" بين شخصيته وشخصية أفضل احتمال ممكن لشريك حياته.

قلت بشيء من الأمل:

- هل تعني أنه يمكننا بهذه الطريقة جعل شخص نعرفه راغبًا في الزواج بنا؟

لكنه أحبطني حين أومأ برأسه رافضًا:

- نحن لسنا سحرة أو مشعوذين والعياذ بالله، نحن نساعد الشخص فقط على جذب شريك الحياة الذي يلائمه دون توقعات مسبقة تتعلق بشخص معيّن.

ثم أخرج من جيبه بطاقة أعمال ذهبيّة اللون ومدّها بيده اليمنى قائلاً:

- يمكنك زيارة الموقع الإلكتروني لمركزنا إذا رغبت في المزيد من التفاصيل، وإذا وجدت ما يثير اهتمامك أكثر يمكنك حجز موعد مع أحد المتخصصين في المجال الذي قد يثير اهتمامك.

عندها اقترب من طاولتنا رجل ممتلئ القوام يلمع في الجيب الأمامي لبدلته الكحلية قلمًا فضيًا فاخرًا، وهتف بسرور:

- دكتور صالح! كنت بانتظارك لمحادثتك في مسألة شديدة الأهمية. هل تسمح لي بدقائق من وقتك؟

استسلم الدكتور لذراع الرجل التي أطبقت على معصمه، ونهض معه مستأذنًا بتهذيب. همس عماد في أذني:

- هذا هو رجل الأعمال خالد عمران. أسهم شركة الحديد والصلب التي يملكها حققت ارتفاعًا كبيرًا لفت اهتمام مجلة "فوركس" العالمية.
- وما علاقته بالدكتور صالح؟

رشف رشفة من الكأس الزجاجي الذي بيده قبل أن يجيب:

- لا أعرف.. ربما يتعلق الأمر بأن الناجحين يحبون صداقة الناجحين، وربما يريده في استشارة تتعلق بتنمية ثروته.

هؤلاء الأثرياء أذكياء، ويعرفون معلومات لا نعرفها ويُتقنون استغلالها بعناية لتحقيق أهدافهم الكبرى.

رمقته بنظرة متسائلة وأنا أمضغ آخر قطعة فراولة بقيت في صحني، فسألني متحفزًا:

- **ماذا؟**
- **كنت اسأل نفسي من أين تأتي بكل هذه المعلومات عن كل هؤلاء الناس.**

تنهد وهو يمسح شفتيه بمنديله، ثم قال كمن يعترف بهمٍ كبير:

- **كل شخص منا يملك حلمه الخاص، وأنا أكبر أحلامي أن أكون ثريًا.. ثريًا جدًا جدًا. أن أملك مالاً لا يملك مثله شخصٌ غيري، ولهذا أسعى وراء جمع المعلومات عن الأثرياء لعل هذا يساعدني للوصول إلى ما وصلوا إليه.**

سألته في طريق عودتنا بعد مغادرتنا حفل الزفاف:

- لماذا تريد أن تصير ثريًا إلى هذا الحد؟

تضاحك قبل أن يجيب بلهجة ساخرة:

- ثمة شاعرٌ عربيٌ قديمٌ لا أذكر اسمه سألوه مثل هذا السؤال فأجابهم:

"يا ليت لي ألف دينارٍ موجهةٌ

وأن حظّي منها: فلسُ فلاّسِ

قالوا: فما لك منها؟.. قلتُ يتبعني..

بها، ومن أجلها، الحمقى من النّاسِ!"

وانطلقنا معًا في ضحكةٍ طويلة مجنونة يشق صداها ظلام الليل، ويشهد على عبثية واقعنا الذي يبحث عن مرفأ في عالم الأمنيات.

(5)

لم أنتظر على باب شقة أختي "فريدة" أكثر من دقيقتين. فتحت لي الباب ابنتها بثوب البيت الفضفاض وكتاب المدرسة الذي تآكلت أطرافه وعلى وجهها ابتسامة مرهقة.. سألتها بلطف:

- **ما أخبار الرسم يا سوسن؟ هل ابتكرت شخصيات كرتونية جديدة؟**

تنهدت قبل أن تجيب:

- **كيف يمكنني أن أرسم شيئًا أو أن أفكر بالرسم حتى مجرد تفكير وكلهم يحاصروننا بالدروس والواجبات؟ أنت هو الشخص الوحيد الذي يسألني عن الشيء الذي أحبه بدل تكرار الأسئلة الخالدة ذاتها: ما أخبار المدرسة؟ كيف حالك**

مع الرياضيات؟ هل أنت مستعدة لامتحانات الثانوية العامة؟ دروس.. دروس.. دروس.. امتحانات.. امتحانات.. امتحانات.. واجبات.. واجبات.. واجبات من بداية الصباح وحتى انتقالنا إلى سريرنا في المساء.. أشعر أنني إنسانة آلية وليس إنسانة من دم وقلب وروح!

قلت مواسيًا:

- لا بأس يا عزيزتي، كل الأوقات السيئة مهما بدت طويلة لا بد وأن تغرب ونستريح منها.
- لا أعرف يا خالي.. الأمر يبدو لهم شديد الأهمية لكنني أعتبره مملاً وبلا قيمة، أنا أكره الفرع العلمي وندمت على دخوله كي لا يقول عني الناس أنني غبية، وأكره الرياضيات والكيمياء، والدتي تريد مجموعًا يوفر لي مقعدًا في كلية الطب بينما لا أحلم بغير مقعد صغير في معهد الفنون الجميلة لأغدو رسامة عظيمة.

قاطعتنا والدتها قائلة بصوت حازم وهي تضع أمامي صينية عليها فنجانين وإبريق شاي:

- سوسن.. اذهبي لإكمال مذاكرتك في غرفتك.

قلت لها بعد أن أغلقت سوسن الباب وراءها:

- تقسين عليها كثيرًا يا خيرية.
- هذا لمصلحتها، إنها صغيرة ولا تعرف حقًا ما ينفعها.
- وما الذي ينفعها؟
- أن تجتهد لتنال مجموعًا كبيرًا يؤهلها لدخول كلية الطب.
- ثم ماذا؟
- تصبح طبيبة!
- لماذا؟
- ترفع رأسنا ورأس عائلتنا.
- تريدينها أن تحقق أحلامك أنت لأجل مصلحتك أنت وليس لأجل مصلحتها هي إذن!
- ما هذا الذي تقول؟

- أقول لك الحقيقة التي لا تعرفينها عن نفسك ولا يعرفها معظم الآباء والأمهات عن أنفسهم؛ وهي أنهم يريدون من أبنائهم أن يكونوا نسخة جديدة محسنة منهم، نسخة تتحمل أعباء النجاح في كل ما فشلوا هم في تحقيقه، وتحقق كل ما حلموا بأن يكونوا عليه كي لا يتضاعف شعورهم بالفشل المركّب.

رمقتني بنظرة نارية وقالت:

- الحقيقة أنني أريدها أن تعيش في الواقع بعيدًا عن عالم الأوهام التي تزينها لها مراهقتها، مثلما أدعو الله أن يهديك ويشفيك من مراهقتك المتأخرة التي لا شفاء منها إلا بزوجة تهبط بك من سماوات الجنون والأوهام إلى أرض العقلاء.

افتعلت نبرة لاذعة في محاولة لإحراجها وأنا أقول:

- تتهربين من قضيتنا الأساسية كالمعتاد!
- بل أنت الذي تتعمد التهرب كلما أدرنا دفة الحديث نحو خطبة أو زواج.. اليوم ألمحت لي جارتنا أم عبدالله أن الناس

في منطقتنا يعتبرون الرجل الذي يبلغ عمرك دون زواج عاجزًا أو شاذًا جنسيًا..

قلت بنبرة ساخرة:

- يبدو أنها تجس النبض كي تحكم خطتها لاغتصابي.. لن أخرج بعد اليوم من البيت إلا ومعي محرم!
- إنها في عمر والدتك!
- الشذوذ لا عمر له!
- ما دام الأمر كذلك فما رأيك أن أخطبها لك ونوفق بين رأسيكما بالحلال؟
- إذا كنت ستؤدين دور "الخطّابة" لهذه المخلوقة فابحثي عمّن توفقين بين مؤخرته ومؤخرتها بالحلال، لأنها بلا رأس أصلاً!

ظننت أنني ضربتُ ضربتي القاضية وكسبت المعركة، لكنها ردت بدمٍ بارد وعينٍ وقحة:

- وماذا عن مؤخرتك أنت؟ ألا تريد أن توفق بينها وبين غيرها بالحلال ككل خلق الله؟

- أنا ممن يفكرون برؤوسهم وليس بمؤخراتهم كمعظم الناس في هذا البلد.
- إذن ما هي شروطك في الرأس الذي يريد رأسك الاتفاق معه بالحلال؟

نظرت في عينيها لحظة بصمت.. وضعتُ فنجان الشاي على المنضدة.. وألقيت كلماتي بثقة:

- رأس "جنّات" بنت أبي أحمد.

رمقتني بنظرة توبيخ وهتفت:

- مرة أخرى!
- وللمرة المليون إن تطلّب الأمر.
- ألم يخلق الله على هذه الأرض غيرها؟
- إن لم يرتبط مصيري بمصيرها فلا أريد أن يرتبط بغيرها.

حاولت أن تلطف من حدة لهجتها وهي تقول:

- **إلى متى ستظل وحيدًا بانتظار هذه المغرورة المُعقدة؟ دعنا نبحث لك عن ابنة حلال تعتني بك قبل فوات الأوان.**
- **لا يفوت أواني إلا إذا تزوجت "جنّات" بغيري.**
- **سبق وأن رفضت خمسة خاطبين غيرك، وفسخت عقد قرانها بواحد!**
- **أحمد الله الذي أزاحهم عن طريقي!**

اقتربت مني أكثر وقالت بلهجة ناعمة:

- **ما رأيك بـ "سلمى" بنت أبي صابر؟ بيضاء، شعرها ناعم وطويل، تتقن الطبخ والنفخ والغسل والجلي وفوق هذا لم تكمل عامها الثامن عشر؟**
- **ومن قال أنني أريد موظفة عندي، أو عبدة، أو خادمة، أو إنسانة آلية تمت برمجتها وفق مقاييس العرض والطلب؟ أريد إنسانة أتزوجها لتكملني وأكملها، تشبهني وأشبهها، تحبني وأحبها، وليس "دُمية" منسوجة وفق مقاييس الذوق النمطي العام!**
- **إذن ما رأيك بـ "أمينة" بنت...**

قاطعتها بحدة خرجت عن حدود سيطرتي:

- لا أريد إلا جنّات، أريدُ أن أعتني أنا بجنّات، وأرعى جنّات، وألبي طلبات جنّات، وأعيش حتى الموت مع جنّات.

شهقت ضاربة على صدرها وهتفت:

- لاشك أنك مسحورٌ بها وتحتاج إلى من يفك حبال هذا السحر.

تنهدت زافرًا شيئًا من تعاستي وقلت:

- ليتها حقًا سحرتني، لو كانت كذلك لقبلت الزواج بي منذ أعوام.

قالت بصوت يرفع راية الاستسلام:

- ستندم يومًا على عنادك، وترضخ للعيش مثل كل الناس.

رن هاتفها فانتهزت فرصة خروجها من الغرفة للرد على المتصل كي أغادر شقتها بصمت.. لا أشك في محبتها لي، ولم أشك لحظة في حُسن نيتيها تجاه مستقبلي، لكن ما لا يمكنها تفهّمه أنني أريدُ أن

أخوض تجربتي الخاصة في الحياة وفق ما أؤمن أنا به لا ما يؤمن به أو يعتقده الآخرون. "خيرية" وُلدت قبلي بتسع سنوات وتحمّلت مسؤولية أمومتي بعد وفاة والدتي، لكني لا أستطيع أن أعيش مثل أولئك الذين تسميهم "كل الناس" لأن هذا يعني بالنسبة لي نهاية حياتي، يعني أن أغدو خاسرًا كبيرًا وأفقد نفسي؛ وبفقدانها أفقد كل شيء، كل ما تعلمته، كل ما قرأته، كل ما شاهدته، كل ما فكرت به، كل ما اعتقدته وآمنت به، وكل ما صدقته.. كل تلك السنين من الصراع مع الحياة والبحث عن الحكمة في صفحاتها الدامية، كل الأثمان الغالية التي دفعتها من عمري لأثبت لنفسي "إنسانيتي" واستحقاقي أن أكون حفيد خليفة الرّب على أرضه، والمكلف بالمساهمة في إعمارها وإرساء دعائم فردوس الحياة الدنيا تحت سمائها.. إن اليوم الذي ترفع فيه روحي راية استسلامها البيضاء معلنة قبول الذوبان بين قطعان بشرية لا رسالة لها يجب أن يكون آخر يوم أسمح فيه لنفسي باستهلاك الأكسجين ومصافحة ضوء الشمس بوجهي. الزواج بلا حُب من أعظم الجرائم بحق الإنسانية. هذا مبدئي.. إما أن تتزوج الإنسان الذي تحبه، أو تخلص في حب الشخص الذي تزوجته، وكل زواج يخلو من شرط "الحب" الحقيقي يكون مصيره الانهيار والفشل، أو البقاء بين أنياب التعاسة والكراهية والملل، وتكتمل الجريمة بسلاح الغريزة الحيوانية المجردة التي تجبر مخلوقات بريئة على القدوم إلى حياة لم يختاروها. هكذا يولد كثيرون

في بلدنا.. يوجدون منذ البداية في أرحام أمهاتهم بلا سبب، ثم يولدون ويعيشون بلا غاية أو هدف، ثم يكبرون ويأكلون ويشربون ويتزوجون وينجبون لأنهم يرون الآخرين يأكلون ويشربون ويتزوجون وينجبون في تكرار نمطي بليد يلغي الفرق بين دورة حياتهم ودورة حياة القرود! وهؤلاء القرود محظوظون جدًا لأن الفشل ينخر كل تفاصيل حياتهم ويدمرها دون أن يشعروا به، فتنتهي من تلقاء ذاتها دون تورط أحاسيسهم بتلك الآلام الكبيرة التي يحسها القادرون على التفكير والشعور. كما أنهم محظوظون بتوفر احتياجاتهم الرئيسة التي تعتمد على الطعام، والجنس، والذوبان في حشود قردية أخرى يقنعهم وجودهم معها بأنهم محبوبون، أو أنهم كائنات مفيدة. أما الآخرون؛ وأعني بهم الكائنات الإنسانية النادرة التي وجدت على الأرض لتكون حلقة الوصل بين العالم السفلي والعالم السماوي وتحقق مشيئة الرب على الأرض فيتعذبون كثيرًا لأنهم لا ينعمون بالحياة التي تستحقها أرواحهم وعقولهم قبل أجسادهم، ويُحاولون صُنع تلك الحياة بما يستطيع الخيال والمال أن يشترياه، وأنا كنت وما زلت أحاول أن أصنع عالمي من الموسيقى، والأفلام، والروايات، وكتب الفلسفة، والصلاة، والتفكير في "جنّات"، وجمع صور كل قطعة أثاث أظنها ستنال إعجاب "جنّات"، ورسم لوحاتٍ بالقلم الرّصاص تجمع بيني وبين جنّات على مسرح الزفاف، وبيني وبينها متعانقان تحت برج إيفل، وبيني وبينها في قارب تحتضنه مياه مدينة البندقية، وبيني وبينها

مستلقيان على حشائش "هايدبارك"، وبيني وبينها ورأسها يرتاح على كتفي في طائرة تحلّق فوق المحيط الهندي، وبيني وبينها وأذنها ترتاح على نبضات قلبي ونحن في مركبة فضائية تنطلق نحو القمر، لأن الأقمار مثلها لا يليق بها إلا قصرًا يغفو بين النجوم.

حين وصلت إلى شقتي وألقيت بمعطفي على المنضدة الزجاجية في غرفة الجلوس، ثم مددتُ ساقي على الأريكة الطويلة وصلّيت في أعماقي بحُزن: "أرجوك يا ربي افعل شيئًا لأجلي هذه المرة.. ساعدني كي لا أبدو خاسرًا وفاشلاً ومجنونًا أمام نفسي وأمام الآخرين"، ثم أمسكت بكراسة الرسم وقلم الرصاص وشرعت بحفر خطوط صورتي جالسًا مع محبوبتي في عربة تجرّها الأحصنة تحت ساعة "بغ بن" في لندن، وسرعان ما غفوت في مكاني والكراسة غافية على وجهي.. وهناك؛ في عالم الأحلام، رأيتُ كأنني مثبتًا مكان العقرب الكبير على وجه ساعة "بيغ بن"، بينما "جنّات" مكان العقرب الصغير، وما أن حانت تلك اللحظة المُعجزة، اللحظة التي يكون فيها العقرب الصغير موازيًا تمامًا للعقرب الكبير بينما تقرع أجراس الساعة اثنتا عشرة دقة، حتى احتضن العقرب الكبير قرينه الصغير بحنان رافضًا السماح لحركة الزمن بأخذه منه، وتستمر معزوفة الأجراس المقدّسة معلنة اقترانهما إلى الأبد.

(6)

الخوف والحرية وجهان لعملة واحدة اسمها "الحُب"، إذ بقدر ما يحرر الحُب أرواحنا ويُحلّق بها في سماوات الآمال والأحلام الثرية بالممكن والمُستحيل؛ يأسرها الخوف على المحبوب والرعب الهائل من فقدانه، لذا أعيش كل يومٍ عذابًا هائلاً خوفًا من اليوم الذي أسمع فيه زغاريد الزفاف في بيت أهل "جنات" مؤذنة بانتقالها إلى أحضان رجُلٍ غيري. تعزف دقات قلبي على إيقاع الفرح حين أسمع أنها رفضت خاطبًا غيري، وفي الأسابيع الثلاثة التي تلت عقد قرانها فقدت اثني عشر كيلو جرامًا من وزني ولم أعد أستطع السيطرة على نوبات الصداع النصفي والرعاف المفاجئ من أنفي والوخزات النارية المباغتة في صدري، فقدت شهيتي تجاه كل شيء وكنت مسرورًا باستنشاقي رائحة اقتراب الموت الذي قد يكون فيه خلاصًا لعذابي أحيانًا، وتعيسًا لأنني سأنتقل إلى حياة أخرى هي ليست فيها، ولا شيء يضمن لي أن تقبل الارتباط بي حين نكون معًا في السماء بعد أن رفضت ذلك على الأرض. في اليوم الذي سمعت فيه أنها فسخت عقد قرانها توقفت نوبات الصداع والرعاف، عادت شهيتي للأكل والاستحمام والرسم والنوم بعمق والذهاب إلى العمل، وعاودني

الإيمان بإمكانية تحقق المعجزات. لا أريد شيئًا منها إلا أن أكون لها، وأعمل على تحقيق أحلامها كي أجد مبررًا حقيقيًا لبقائي على قيد الحياة بعد أن فقد قلبي سلواه في اليوم الذي فقدت فيه والدتي. لا يمكن أن يدرك القيمة الحقيقية للحب إلا الذين أكلت لياليهم الوحدة، تلك الوحدة التي لا يملأ فراغها اكتظاظ الكون حولنا بالضجيج، وحدة لا نشعر بها من فراغ المكان الذي نكون فيه، بل نشعر بها من فراغ سري في أعماقنا، داخل القلب، كثقبٍ هائل عميق باتساع الكون، لا يمتلئ مهما مرت على أيامه ولياليه الوجوه وأصوات، ولا يشبعه إلا صوت شخصٍ واحد، ووجه شخصٍ واحد، وابتسامة شخصٍ واحد، ترجح كفة وجوده بمفرده على وجود كل من نعرف ومن لا نعرف من البشر. ليست لي طموحات أخرى، شقتي صارت ملكًا لي بعد أن تقاسمنا – أنا واشقائي– ميراث أبي، رواتبي الشهرية تتكدس في حسابي المصرفي لأنني بلا أسرة ولا احتياجات دنيوية كبيرة، لا يهمني إثبات وجودي أو ذاتي للعالم بالمشاركة في منافساته المادية لأنني أعتبر هذا العالم أصغر وأتفه كثيرًا من أن أضيع وقتي لأجل رأيه في تصرفاتي، كل الأحداث تبدو سخيفة، باهتة، مكررة، ومعظم الأشخاص يجترّون تفاخرهم بغبائهم في كل فرصة ممكنة. ألبير كامو يقول: "لا أحد يعرف أن البعض يبذلون جهودًا جبارة ليكونوا مجرد أناس عاديين"، أنا أفهم ذلك جيدًا وأشعره كل يوم خلال مواجهتي مشاهد الغباء اليومية التي يتباهى بها البشر

باعتبارها مُنجزات! العالم يركض مسرعًا نحو الأفضل، بينما هؤلاء الذين يعيشون في هذا الثقب الأسود من الأرض يرقصون طربًا على موتهم الذي يعتبرونه طبيعيًا شهيًا! تعزز مُعتقدي هذا عندما رافقت "عماد" إلى المقهى مساءً ووجدت نفسي بين جماعة من تلك الكائنات حول طاولة واحدة. رن هاتف أحدهم فتأفف قبل أن ينقر على زر قطع الاتصال قائلاً:

- هؤلاء "الحريم" طلباتهن لا تنتهي! اشترِ الأرز.. أوصل العيال إلى المدرسة.. اشترِ الدواء.. أوصلني إلى بيت أهلي.. طلبات طلبات طلبات!

رد آخر وهو ينفث دخان الشيشة من فمه وأنفه:

- أعانك الله! الحريم لا يتأدبن إلى بتكسير رؤوسهن. افعل مثلي واكسر رأسها بزوجة ثانية.

قال ثالث وهو يخلط أوراق اللعب بيديه:

- ومن أين سينفق على الثانية وأولادها وراتبه لا يكفي منتصف الشهر بامرأة واحدة؟

- يتزوجها موظفة، تشتغل لتصرف عليه وعلى نفسها وأولادها في النهار، وتشتغل تحته في الليل.

قلت بنبرة مُشمئزة:

- هل ترى في ذلك رجولة؟
- طبعًا.. قمة الرجولة.. ألا يكفي أن فحولتي قادرة على حرث أرضين بمعولٍ واحد؟
- لا أرى رجولة في شخصٍ أقصى منجزاته التباهي بخلع سرواله الداخلي أمام أكثر من واحدة!

تطاير الرذاذ من فمه وهو يصرخ:

- اخرس أيها العلماني الزنديق، أنا أعرفكم جيدًا أيها الكفار المتنكرون، تريدون نشر أفكاركم الهدامة في المجتمع وتخريب عقول الناس.

ركبتني لحظة جنونٍ متوحشة فانقضضت عليه وشددت ياقته صارخًا:

- اخرس أنت أيها الداعر الحقير، أيها التافه الوغد العربيد. أنت لست رجلاً، أنت معقد ومريض نفسيًا، تحاول إشباع عُقد نقصك بتكديس النساء على فراشك واضطهادهن وسرقتهن يا عدو الله، يا عدو النبي، يا عدو المجتمع، يا عدو الحكومة، يا عدو البلد والإنسانية والضمير.

بدأ يتظاهر باقترابه من الإغماء صارخًا:

- أنا حلال.. أنا حلاااال.. ما فعلته حلاااال على سنة الله وسنة رسوله.. أنا مريض.. أنا عندي الضغط والقلب والسكري والكوليسترول.. سأمووت.. أنقذوني.

تحلق حولنا الناس، فجذبني عماد بقوة إلى خارج المقهى الذي ما أن تجاوزنا بابه حتى انفجرت منه ضحكة هستيرية وهو يقول:

- حرام عليك! لقد سحقته سحقا أيها المجنون!
- رأيت بنفسك كيف تعمد رفع صوته وهو يتهمني بالكفر والزندقة كي يثير نعرة الأخرين الدينية ضدي ويتحركون لضربي وربما قتلي، قلت أتغدى به قبل أن يتعشى بي.

- ما كان ينبغي أن تبدي رأيًا في الحوار منذ البداية.
- لقد سئمت يا عماد.. سئمت رضوخنا لعفونة أفكارهم المتخلفة التي ينشرونها في المجتمع وكأنها من المسلّمات الطبيعية!
- أنت تعرف الناس في هذا البلد وتعلم أن جماجمهم محشوة بالخراء، ماذا تتوقع وماذا تنتظر؟
- لا أتوقع شيئًا ولا أنتظر شيئًا ولم أعُد أخشى شيئًا ولهذا سأفعل ما أريد.

عندها كنا قد وصلنا إلى مفرق الطريق المؤدي إلى منزلي فافترقنا، بدت الطرقات في تلك الساعة من الليل تكرر نفسها بالأطفال الذين يتقاذفون كرة قدمهم أمام باب دكان صغير، ولفحات الضباب الباردة المشوبة برائحة رمادية. في الجهة المقابلة من منزلي جُرِح سواد الليل بأضواء حمراء تتراقص على رأس سيارة إسعاف، وحين اقتربت شعرت بوخزة مفاجئة في قلبي، التفت إلى جهة اليسار حيث المنزل المقابل ورأيتها هي.. تحت مصباح باب منزلها بدت الدموع التي تغرق عينين محمرتين بغزارة بينما تحاول مساعدة موظفي سيارة الإسعاف في نقل شخص مسجى على الحمّالة، ركضت إلى هناك لأرى وجه جدها مسبل العينين تحت قناع أكسجين، ابتلعتهم سيارة الإسعاف جميعًا

وبدأت تشق الطريق في سباق مع الزمن فسارعت بركوب سيارتي والانطلاق وراءها في سباق مع عجلاتها. تمت إجراءات الدخول إلى المستشفى بسرعة، وعلى مقعد طويل خارج غرفة "العناية المُشددة" انخرطت في بكاءٍ مكتوم أغرق خديها وبلل رداءها بالدموع، شعرتُ أنني عاجزٌ ومشتت أمام انهيارها، لكنني تمالكت نفسي واقتربت لأقدم لها بضع مناديل ورقية كانت مطوية بعناية في جيبي. أضاء قبس من الضوء في قلبي حين مدت يدها لتأخذها، غادرت الممشى لصب كأس ماء من براد مياه معقمة في قاعة الاستقبال، عدت لأقدم لها الكأس فأمسكته بكفيها على حجرها دون أن تشرب، فانزلقت دمعة من خدها الأيمن لتختلط بالماء. قلت برفق:

- حاولي أن تشربي قليلاً لئلا تصابي بالجفاف.

رشفت رشفتين، ثم بدأت تجفف وجهها بعناية من آثار الدموع، تمنيت لو كانت زوجتي لأتمكن من صب الماء على كفي وغسل وجهها به. رشفت رشفة ثالثة من الكوب ثم قالت بصوت مبحوح دون أن ترفع نظراتها نحوي:

- شكرًا لك.

قلت بلطف:

- لم أفعل ما يستحق الشكر.

لبثت صامتة لحظات قليلة قبل أن تقول:

- عندما ذهبت لإحضار الماء قبل قليل ظننت أنك غادرت المستشفى إلى بيتك ولن تعود أبدًا.. شعرتُ.. أنني.. وحيدة.
- كوني على ثقة أنني لن أتركك وحيدة أبدًا، وإذا ذهبت إلى أي مكان فسأعود سريعًا.

كانت المرة الأولى التي نتبادل فيها حديثا خاصًا من أي نوع، لذا لم أعرف إن كان ما قالته للتو ناجمًا عن شخصية تملك شجاعة هائلة للتعبير عن ذاتها إلى هذا الحد، أم أنه وليد لحظة غرق أدت إلى تشبثها بقشة طلبًا للنجاة.. وفي أي من الحالتين كان كل ما أريده هو حمايتها من الخوف ولو بالكلمات.. حاولت أن أبتسم وأبث جرعة مرح صغيرة في صوتي وأنا أقول:

- وحتى إذا ذهبت وتأخرت، فكل ما عليكِ أن تفعليه حين تحتاجين قدومي هو أن تهتفي: "أنقذني يا كمال"، وسرعان ما تريني واقفًا أمامك مرددًا: "شبيكِ لبيكِ كمال بين يديك".

بدا على شفتيها شبح ابتسامة خجولة، عندها خرج الطبيب من غرفة العناية المشددة بكلمات طمأنتنا ختمها بقوله قبل أن يُغادر:

- أحواله الآن مستقرّة، تستطيعان الذهاب إلى البيت والاطمئنان على صحته غدًا.

لاذت بمقعدها مطبقة على زاويته المعدنية بأصابعها، فحاولت إقناعها بالعودة إلى البيت:

- هيا بنا، بقاؤنا لن يُقدم في صحته لكنه قد يؤخر في صحتك.. سنعود في الصباح الباكر.

لم تتفوه بحرف، فجلست في المقعد المجاور واسترسلت:

- لا تقلقي، سآتي بنفسي لإيصالك إلى هنا غدًا.. لن أنسى ولن أتأخر.

نظرت لي نظرة من يستوثق من صدق هذا الوعد، ثم لملمت أطرافها بصمت ونهضت لنسير معًا نحو بوابة الخروج.

(7)

لا بد أن من اخترع كلمة "تعب" لم يكُن عاشقًا. أشعُر أنني ريشة في مهب الجنون، روحي تريد القفز والرقص ومستعدة للفوز عشر مرات في مسابقة للجري ملايين الكيلومترات تحت المطر، والبرق، والرعد، والأعاصير رغم أنني لم أطرق أبواب عالم النوم منذ عشرين ساعة. ومثل طفل ينام محتضنًا أمنياته بهدايا يوم العيد القادم نمت محتضنًا أملي برؤيتها في اليوم التالي.

كانت غفوات متقطعة أفقت من آخرها قبل رنين جرس المنبه بعشرين دقيقة. لم تُجاملني المرآة أو ترحم طموحاتي بأن تبدو صورتي مثل "كيانو ريفز" أو على الأقل "حسين فهمي"، لكنها ساعدتني أن أهذب لحيتي على طريقة "حسن الرداد" وشعري على طريقة "تيم حسن". ارتديت بدلة تخفي كرشي الصغير وأنا أعد نفسي بالعودة لممارسة تمارين البطن خمسين مرة في الصباح ومثلها في المساء بدءًا من يوم غد. مسحت سيارتي من الداخل والخارج وأفنيت ربع زجاجة من عطر الياسمين في أجوائها، ثم طرت إلى باب بيتها ووضعت إصبعي على الجرس.. لم أسمع صوتًا.. مرتان، ثلاث، ثم أربع مرات تفصل بين كل واحدة منها دقيقة أو دقيقتين، ولا أحد يجيب. سقط

قلبي بين قدمي واختفى الأكسجين من عالمي دفعة واحدة. هل حدث لها ما منعها عن الرد؟ ألا زالت على قيد الحياة؟ ربما تسرب الغاز من أنبوبة المطبخ وخنقها وهي في البيت بمفردها، هل أغمي عليها؟ هل سقطت من أعلى السلّم؟ تدفقت عشرات الصور المروعة في ذهني كسيلٍ جارف للعقل. حرّكت مقبض الباب فانفتح بسرعة، أطللتُ برأسي قليلاً فانهمرت رائحة حزن عميق للترحيب بتطفلي على شجيرات الحديقة اليابسة، مددتُ جسدي قليلاً ثم خطوت إلى الداخل، وهناك؛ إلى أقصى اليسار، على مقعدٍ خشبي طويل كانت غافية وبيدها كتاب، وقد انحسر وشاحها عن ضفيرة طويلة تقصفت أطرافها، وبدا وجهها السابح في عالم الأحلام أكثر شحوبًا في الجو البارد مما كان عليه قبل ساعات. بنفسٍ مكتوم خلعت معطفي لأغطي الجسد المنكمش من البرد، بدأت عيناها الغافيتان ترمشان، وقبل أن أصل إلى باب الخروج كي لا تراني وترتاع كان الأوان قد فات واستيقظت.. استوقف صوتها خطواتي الهاربة على أطراف الأصابع:

- أهلاً.

تجمدت خطوتي في مكانها، ثم استدرتُ لأجدها اعتدلت في جلستها، سألت بصوتٍ مشحون ببقايا آثار النوم:

- منذ متى وأنت هُنا؟

عُدت أدراجي وقلتُ بنبرة اعتذار:

- آسف جدًا على اقتحامي بيتكم دون إذن، لكنني قرعت الجرس فلم يُجبني أحد، وخشيت أن يكون قد أصابكم مكروهًا.

شردت نظراتها لحظات نحو جذع شجرةٍ مقطوعة، بدا وكأنها ترى ما لا أراه، أو تفكر بشيء لابد من التفكير فيه، ثم عاد بصرها إلى مكانها، طوت المعطف برفق وقدمته لي قائلة:

- شكرًا لك.

بدا لي صوتها رقيقًا خاليًا من الغضب وشهية العقاب ضدي، قلتُ محاولاً تبرير خطيئتي:

- جئتُ اليوم على وعدي لنذهب معًا إلى المستشفى.

قالت وهي تعيد ضبط وشاحها الأخضر على رأسها:

- اليوم جمعة، والزيارات ممنوعة في الصباح.

ملأني شعور بالإحباط وأنا أرى محاولاتي للتبرير تغوص بي مستنقع لا نهاية له من الإحراج أمام الإنسانة الوحيدة التي لا أريد أن أرتكب خطأً واحدًا أمامها، فقلت محاولاً التستر على خجلي:

- آسفٌ جدًا على إزعاجك دون فائدة.

سددت إلى عيني مباشرة نظرة عميقة وقالت:

- لا يجب أن يعتذر الإنسان على الأشياء الصحيحة التي يفعلها حتى لو بدا للآخرين أنها خاطئة.

قلت بنظرات مسكوبة على الأرض:

- شكرًا على لطفك.. اسمحي لي الآن بالمُغادرة.

مرت لحظة صمتٍ قبل أن أسمع صوتها آمرًا بثقة:

- لا، أنا لا أسمح لك.

رفعتُ بصري نحو عينيها بنظرةٍ مُتسائلة عادت خائبة أمام غموض عينيها العميقتين، استغرقت ثوانٍ لابتلاع دهشتي قبل أن أقول:

- أنا مُستعدٌ لكل ما تأمرين به، وما تسمحين به.
- اجلس..

جلست على طرف الكرسي الخشبي، ثم قلت:

- جلوسي هنا قد يتسبب لكِ بالمتاعب.
- ولماذا جلوسك معي قد يُسبب لك المتاعب؟
- لي؟!
- بطبيعة الحال، فنحن نرى انعكاس حقيقتنا دائمًا في الآخرين، ونوجه لهم الكلام حين نريد التكلم مع أنفسنا.

ضحكت وأنا أقول:

- يا لها من فلسفة!

- ربما تظنني مجنونة، لكنني لستُ أكثر جنونًا منك.
- لا شك عندي في ذلك!
- قل لي إذن؛ لماذا تظن أن جلوسك معي سيسبب لك المتاعب؟
- لو كنت أخشى على نفسي المتاعب ما ورّطتُ نفسي باقتحام بيتك! أنا أخشى عليكِ أنتِ من تورُّط سمعتك بسببي.
- مع من؟
- مع الآخرين.
- أي آخرين؟ أولئك الذين لا يهمهم موتي أو حياتي، وربما لا يعلمون أصلاً أنني موجودة؟
- معكِ حق.
- في ماذا؟
- في وجهة نظرك.
- وماذا عن وجهة نظرك أنت؟
- عالمي يختلف عن عالمك.
- لماذا دخلت عالمي إذن؟

- قضاء وقدر!
- القضاء والقدر لا تمتد أيديهما هذه الأيام إلا إلى القصص الخيالية.
- اعتبري أنك تتخيلين هذه القصة إذن!
- لماذا تتهرب دائمًا من الإجابة؟
- أنا لا أتهرب، لكن بعض الأسئلة ليس لها إجابات، وإذا وُجدت فهي كالقضاء والقدر، حقيقية لكن العقلاء أكثر مما يجب والواقعيون أكثر مما ينبغي لا يصدقونها!
- لكنني لستُ واقعية ولا عاقلة!
- لكن خائفة، ومرتابة، وغير واثقة بسبب الظروف التي تمرين بها الآن.

ردّت بتوحّش:

- لستُ خائفة.
- حسنًا.. أنا الخائف.
- من ماذا؟
- عليك..

- لماذا؟ أنت لا تعرفني، ولا أمت لك بصلة قرابة توجب اهتمامك بي.

بماذا أجيبها؟ أعرفك أكثر من نفسي وإن لم أكن أعرفك بالقدر الذي تعتبرينه كافيًا فأنا مستعد للتحول إلى أفضل نسخة إنسانية تعتقدين أن لها الحق في معرفتك؟ هل أقول لها أنكِ أقرب لي من نفسي قبل أن تكوني أقرب من أي إنسان أو مخلوق آخر؟ أنني منذ رأيتك قبل عشرين عامًا فقدتُ عقلي ولا زال عندك حتى اليوم وأنتِ لا تعلمين؟ منذ البارحة حتى اليوم وأنا أحطم أرقامًا قياسيَّة في تفجير الاعترافات تلو الاعترافات على مسامعها ولم يعد بوسعي كسر آخر حدود التهور كي لا أفقدها في لحظة جنون.. قلت لها بتهذيب:

- الإنسانية عائلتنا الكبيرة، والجوار أهم صلة قرابة.
- ألا زال هناك من يُصدق هذه المثاليات؟!

مددت يدي ملتقطا الكتاب الراقد بوجهه على الأرض معلنًا أنه تهاوى من بين أصابعها حين غلبها النعاس، وقلت بلهجة ذات مغزى وأنا أنظر للعنوان:

- الذين لا زالوا حتى اليوم يعيدون قراءة "رسائل غسان كنفاني لغادة السمان" لابد وأنهم يؤمنون بالمثاليات حتى وإن تظاهروا بعكس ذلك.

واستطردت قاطعًا عليها طريق الرد:

- الجو بارد هنا وأنتِ تبدين مرهقة وجائعة، ادخلي ونامي في فراشك، سأحضر طعامًا وأعلق الكيس على الباب ثم أقرع الجرس وأذهب.
- الجرس معطل.
- منذ متى؟
- أكثر من شهرين.
- لماذا لم يُصلحه أحد؟
- حاولت إصلاحه بنفسي أكثر من مرة لكنني فشلت، وتعبت، ثم يئست.
- سأحضر الطعام ثم أصلحه.
- لا تتعب نفسك.

قلت بصوتٍ غير مسموعٍ وأنا أغلق الباب ورائي بحرص يجعل فتحه ممكنًا عند عودتي:

- أقصى طموحاتي أن أتعب نفسي لأجلك كل ما تبقى من أيامي.

لأنه أحبَّني

(8)

ماذا يُريد مني؟ ما هدفه الحقيقي من مُساعدتي؟ بالتأكيد لا علاقة للأمر بـ"أخلاق الجوار"؛ لأن هذا الشارع مليء بجيران غيره كلهم منشغلون بأنفسهم عن مُساعدتي. لا أظنه يُخطط لاغتصابي أو يُفكر بإقامة علاقة معي في بلد لا يفكر رجاله باغتصاب فتاة أو إقامة علاقة معها أو الزواج بها إلا إذا كانت تحت سن الثلاثين حتى وإن كانوا فوق الخمسين! مُرتابة منه لكني في الوقت ذاته أحتاجه، خائفة منه لكني لا أستطيع تجاوز الكابوس الذي أعيشه بدونه. ليته كان امرأة، لو كان امرأة ما اضطررت للتفكير كثيرًا، ولما حاولتُ فك ألغاز تصرفاته كثيرًا، ولما تعقدت الأمور بهذا الشكل. لعنة الله على الرجال! لا يدخلون في قصة إلا عقّدوها وجعلوا حلولها مستحيلة!

باستثناء جدي؛ ليس في حياتي شخص يهتم لموتي أو بقائي.. كان الأمر مفزعًا عندما كنت في السابعة عشرة؛ كانت مخيلتي حُبلى بأحلام اكتشفتُ بعد أعوام أنها أوهام. صار البشر كلهم بالنسبة لي متشابهين وبلا قيمة غير تلك القيمة التي امتاز بها جدي بحكم معيشتنا تحت سقف واحد. اكتشفت أن القيمة الحقيقية لأي إنسان

يجتاز خارطة حياتنا تكمن فيما يقدمه لنا مهما حاولنا إقناع أنفسنا بالعكس، وأنا لم أجد من يقدم لي شيئًا. حاولت إغداق العطاء على بعض الصديقات آملة أن يكون الرد اهتمامًا مُتبادلاً يُشعرني بإنسانيتي فلم تصل محاولاتي تلك إلا إلى طريق الخيبة والخذلان، كُن يأخذن كل شيء ولا يُعطين شيئًا. حين وصل الأمر إلى أن يعتبرني أولئك الذين يكبرنني في السن "أمًا حنونة" يلجأن لها كأذن تنصت لمُشكلاتهن ويغيب وجهها عن ذاكرتهن في مناسباتهن السعيدة شعرتُ أن مؤسستي الخيرية للتبرعِ بالطاقة المعنوية شارفت على الإفلاس، وقررت قطع جذور صداقاتي كي أحمي ما تبقى من ذاتي.

غرقت في قراءة الكتب فرارًا من مشاعر الوحدة والخذلان، واكتشفتُ أن الكتاب هو الصديق الوحيد الذي يعطيك بسخاء في اللحظة التي تعطيه فيها قلبك ووقتك، وبالنسبة لامرأة مثلي؛ الكتاب هو الحبيب الأقل تطلبًا والأكثر إخلاصًا. ذاك العالم الشاسع الكامن بين سطور الكتب وهبني شعورًا بالتفرّد، بالتربع على عرش مملكة غير مرئية تحكمها أمنياتي، وتتحول فيها رغباتي إلى أوامر مُجابة. تحولت الأحداث اليومية التي تنسج حياة الآخرين إلى تفاهات بالنسبة لي؛ أخبار الولادات، الوفيات، الزيجات، كلها سخافات تاريخ بليد يجتر صفحاته برتابة. كل ما يبدو لأولئك البشر مُبهرًا يبدو لي باهتًا ما دامت الأرض ستلملمه وتكنسه بعد وفاتهم مقارنة بالأحداث الخالدة على صفحات الكتب. عندما قبض "كمال" على

روحي متلبسة بمرافقة "رسائل غسان كنفاني لغادة السمان" استولى عليَّ مزيج من الخجل والاندهاش.. الخجل لأنه لمح زاوية عارية من زوايا روحي التي أخفيها عن المتلصصين، والاندهاش لأنني لم أكن أتوقع وجود شخص غيري بين المقيمين على حافتي هذا الشارع يهتم بمصادقة الكتب!

سألته بينما كان يصب تركيزه على إلصاق أحد الأسلاك المرتبطة بجرس الباب الكهربائي:

- هل تحب القراءة لغسان كنفاني؟

بدا وكأن صوتي قد فاجأه من عالم مجهول بعيدًا عن عالم تركيزه على السلك الذي بين يديه، التفت لي بابتسامة تُشبه تلك الابتسامة التي ينظر بها الآباء لأطفالهم وقال:

- ولغادة السمان أيضًا.

قلت بينما تعبث قدمي بالأرض وظهري مستند إلى الباب الخارجي:

- وكيف اكتشفتها؟ أعني "غادة"؛ كيف اكتشفت أن لها مؤلفات ثم قرأتها؟

- عندما كنت عائدًا من المدرسة قبل عشرين عامًا وجدتُ نسخة قديمة من مجلة "النهضة" الكويتية ملقاة على قاعدة الطريق، شدت بصري الصور الجذابة التي تنم عن ذوق سبعينيات القرن العشرين: الآنسات والسيدات بتصفيفات شعورهن الأنيقة وملابسهن الجميلة، الرجال ببدلاتهم المحبوكة بإتقان، إعلانات السجائر الساحرة، السيارات الفارهة، حدائق المنازل المنسقة، والمعارض التجارية الفخمة التي لم يعد لمعظمها اليوم وجود. وكانت صورة "غادة السمان" مرتسمة على ثلث صفحة، وتحتها أحد نصوصها.

قلت بنبرة مُتسائلة:

- أعجبك النص وبدأت مرحلة إدمان الحروف؟

ضحك ضحكة متواضعة وسأل:

- هل اكتشفتِها بطريقة مشابهة؟
- لا.. أنا أهوى القراءة منذ كان عمري ثمانية أعوام، وكنت أرتاد المكتبة كل أسبوع لاقتناء كتاب.

قال وهو يصعد على السلم لتثبيت أحد الأسلاك:

- عندي في بيتي مكتبة كبيرة فيها كتب بأكثر من لغة، كتب عربية، وإنجليزية، وفرنسية، وفارسية، وألمانية، وحتى هندية، وصينية، ويابانية، جمعتها خلال رحلاتي خارج البلاد.
- هل تستطيع القراءة بكل تلك اللغات؟
- لا، لكني لا أستطع مقاومة اقتناء كتاب يبدو مضمونه شهيًا حتى وإن لم أعرف لغته.

بدا لي الأمر مُدهشًا، فكرتُ أن هذا الرجل مختلف عن كل من صادفتهم في حياتي، فيه شيء يشبه أبطال الروايات الذين نحلم بانطلاق أحدهم من بين صفحات الخيال إلى الواقع، ووجدت نفسي للمرة الأولى أتأمل عينيه، وقامته، وملابسه باهتمام.. استرسل قائلاً:

- تستطيعين زيارة مكتبتي برفقة جدك حين ينهض من فراش المرض بالسلامة.

(9)

مات جدي. لم يعُد هناك شخص واحد يمكنني إقناع نفسي بأن لوجودي قيمة في حياته، لم يعد هناك عذر أخدع به نفسي مُدّعية أنه سبب بقائي على قيد الحياة. سأعيش في هذا البيت المشحون بغبار الشيخوخة بمفردي، قلت لنفسي وأنا أنظر إلى إسفلت الشارع الممتد من نافذة سيارة "كمال" وهو يقلّني إلى البيت: "سأموت أنا أيضًا، سأتعفن وحيدة على سريري وتفترسني الديدان، ثم يتآكل البيت بعد عشرات السنين وينهار على بقايا هيكلي العظمي.. من يهتم؟".. تخيلت أنني أتحول بعد موتي إلى شبح وأبقى محبوسة بين جدران البيت إلى الأبد دون أن أتمكن من الخروج أو تتمكن أشباح أخرى من زيارتي. شعرت بالهلع من تلك الفكرة، فإذا كان الموت قادرًا على تحريري من الحياة وحيدة فلا شك أن تحولي إلى شبح يعني احتباسي في عالم الوحدة إلى الأبد. قاطع كمال حبل أفكاري سائلاً:

- هل نقيم عزاء؟

أجبت بانطفاء:

- لا داعي لذلك، ليس لنا أقارب داخل البلد.
- كثيرون يعرفون الحاج.
- أصحابه غادروا الدنيا منذ سنين طويلة، وأنا لا رغبة لي باستقبال أشخاص مجهولين.
- سأرسل لكِ أختي كي لا تبقين الليلة بمفردك في البيت.

قلت باقتضاب:

- لا.

تحسستُ محفظتي داخل حقيبتي لأتأكد من وجودها، ثم التفتُ نحوه قائلة:

- خذني إلى أقرب فندق.

(10)

كانت غرفة الفندق نظيفة، بسرير في المنتصف ونافذة بطول ثلثي جدار تُطل على شرفة صغيرة. ألقيت بجسدي على الفراش ثم خلعت فردتي حذائي بكسل، وغصت في نومٍ عميق.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والثلث فجرًا عندما استيقظت، شعرت أن جسدي مثل قميصٍ تم غسله وعصره بعنف فلم أتحرك، تابعت شروق الشمس عبر زجاج النافذة الكبيرة المقابلة وأنا أفكر أن كل شيء عاد وكأن شيئًا لم يكُن، ولا كأن رجلاً مات، ولا كأن فتاة صارت وحيدة في هذا العالم. قوانين الكون أكبر من أن تعترف بما نعتبره نحن البشر كبيرًا، قوانين الكون صارمة وأنانية مثل ساعة أبدية لا تخطئ. كل أولئك البشر الذين تزداد أصواتهم بالتدريج قادمة من وراء النافذة يُعلنون أنهم مجرد براغي مؤقتة في عجلة الحياة، تلاميذ في طريقهم إلى مدارسهم، آباء في طريقهم إلى مشاغلهم، باعة ونساء ومتسولين وكناسين ومجانين في طريقهم إلى حيث لا أدري. هم أيضًا سيموتون وسيأتي غيرهم آخرون ليموتوا ويحتل مكانهم آخرون، مسلسلٌ لا ينتهي ذو هدف لا ترتقي قدراتنا العقلية البشرية على فهم الحكمة العُظمى منه. تلاشى شعور البارحة بأنني وحيدة وحل

مكانه شعور هادئ بأنني ذرّة صغيرة في زحام تلك الذرّات البشريّة على وجه الأرض. قلت لنفسي: "لقد تحررتُ تمامًا، الآن لست مرتبطة بمخلوق ولا مخلوق يرتبط بي. أنا أملك كل الأعوام الباقية من حياتي". بدت لي الأعوام الباقية مثل صفحات امتحان كثيرة بيضاء تحتاج أن أملأها كي أحصل على درجة النجاح، وفكرت: "هذا هو الأمر، هذه الحياة مجرد مدرسة مملة تُطالبنا بحل واجب بلا نهاية على صفحات دفتر لا ندري متى ينتهي! لكنني الآن بلا واجب لأنني تحررت من الالتزام، ولذا فإن دفتري يُطالبني بكتابة موضوع إنشائي طويل حُر دون قيود".. ثم تساءلت: "ترى ماذا لو وضعت نقطة في آخر هذا السطر من حياتي بالانتحار؟ هذا أيضًا خيار، لكنه لا يبدو مبهرًا مثل إغراء كتابة قصة جديدة على مزاجي في الدفتر، لنترك الانتحار إذن ليكون خطة بديلة ألجأ إليها إذا سُدت كل الدروب والأبواب في وجهي".

استسلمت لغفوة قطعها رنين هاتف الغرفة، جاءني صوت كمال دافئًا:

- كيف حالك؟

قلت باقتضاب:

- جيدة.
- هل تسمحين لي بمقابلتك في مقهى الفندق؟
- دقائق وأنزل.

فكرت وأنا أغسل وجهي بالماء والصابون: "كم تبدو الكلمات عبئًا سخيفا أحيانًا، حقيرة كالطعام، أجل؛ كالطعام تمامًا، لابد منها لنعيش وتستمر الحياة، المطلوب فعليًا هو المادة الأساسية، المضمون، لكن مثلما نحن مضطرون لطهي الطعام وتزيينه لابد من بذل جُهد لتجميل الكلمات وبهرجتها وقصقصة زوائدها ليستوعبها الآخرون بالشكل الذي نريده، وأنا لا أحب أن أطبخ طعامي ولا كلامي لأحد. هذا الـ "كمال" يبدو ولدًا طيبًا، وأنا لا أريد أن أجرحه، كل ما أريده هو أن يرحل بسلام دون توقعات قد تكون أكبر من قدرتي على تحقيقها. الشبان كلهم متشابهون، في البداية يتمسكنون ويتقرّبون ما داموا ضعفاء؛ وما أن يتحقق هدفهم وتشق ثقتهم بأنفسهم عنان السماء يغدرون بالفتاة المسكينة ويهجرونها للوحدة والدموع بينما يبحثون عن المزيد من الثقة بالنفس عند فتاة مختلفة، وأنا قلبي تفحم من الدموع. لو أن أحد الأغبياء يسمعني الآن لاتهمني فورًا بـ"التعميم"، لكن ما دمت أتحدث بنفسي مع نفسي فمن حقي أن أقول ما أشاء وأتهم من أشاء و"أعمم" كما أشاء وأتهم الآخرين بالغباء دون

حساب". عند هذه الفكرة داهمتني موجة قهقهة أطلقت لها العنان بحُريّة قبل أن أفتح باب الغرفة للخروج.
كان يجلس على طاولة قريبة من مدخل المقهى، وبين يديه نسخة من صحيفة محلّية. قلت وأنا أجلس على المقعد المواجه:

- **نفس الأخبار تُطبع بتاريخ جديد كل يوم. ألم تحفظها عن ظهر قلب؟**
- **أتسلى قليلاً بقراءة زاوية الأبراج.**
- **من الطريف مُصادفة رجل يعترف بذلك، أكثرهم يتظاهرون بأنهم لا يصدقونها.**
- **الرجال دائمًا يتظاهرون بما لا يعتقدون.. ليس الرجال فقط، أكثر البشر كذلك. لكننا نحن الذكور مضطرّون للادّعاء بأننا نفهم كل شيء كي نتواءم مع الصورة الذهنية المرسومة لنا سلفًا في المجتمع.**

ضحكت قبل أن أقول:

- **أليس في هذا الاعتراف الصريح لي خيانة لـ"عالم الرجولة"؟**

- خيانة الأفكار الخاطئة هي أعظم وفاء للصواب في هذا العالم.

قاطعنا خادم المطعم وهو يضع أمامي كوبًا كبيرًا من الشاي الساخن بالحليب، وقطعتين من الخبز المحمص بالزبدة والمربى. قال كمال:

- لا أعرف ذوقك، لكنني طلبت لك مثلما طلبتُ لنفسي.

شرعت بقضم قطعة الخبز المدهونة بالزبد والمربى دون كلام، ما دامت هذه اللعبة العجيبة تعجبه ولا تؤذيني فلأشاركه اللعب دون التزام بشكر ما لا أحتاجه، وما دام يتلذذ بالتطفل على شؤوني واقتحام وحدتي فلأتلذذ بما يقدمه لي دون تعقيدات كبيرة.

قال كاسرًا حاجز الصمت:

- تبدين أفضل حالاً من البارحة.
- أجل، انتهى الأمر.
- أي أمر؟!
- انتهت "أنا"، "أنا" القديمة ماتت صباح اليوم.

- مُبارك، هذه أخبار طيبة.

قلت وأنا أنظر في عينيه مُباشرة بعد أن رشفت رشفة من كوب الشاي بالحليب:

- يُدهشني حقًا أنك تفهمني دون شرح طويل.
- لأنني مثلك.
- لكنني لا أفهمك!
- لا يهم.
- وأظن أنك مجنون!
- أنا أيضًا أظن ذلك.

جاءت ضحكتي منهكة وقصيرة بسبب شعوري الداخلي بالتعب، قلت بلطف:

- أنت لا تعرف اليأس.
- ليس مع كل شيء.
- ما الشيء الذي قد يجعلك تيأس؟
- كل شيء آخر في الحياة.

- لماذا تضيع وقتك معي؟
- وقتي كله ملكك، والشيء لا يضيع إذا أنفق على مالكه.

قلت بنبرة تحذير:

- اسمعني جيدًا يا أخي..

قاطعني بهدوء:

- لست أخاك.. كل النساء أخواتي إلا أنتِ.

كانت تلك الجُرأة المفاجئة أضخم من قدرتي على المقاومة، تجاهلتُ المعنى الذي يرتدي كلماته واسترسلت:

- اسمعني جيدًا يا سيدي الفاضل: أنت وأنا كبيران وناضجان بما فيه الكفاية على مثل هذه الألاعيب الصبيانية. قد يُحبطك ما سأقول؛ لكنني بلا أي شغف أو رغبات في هذه الحياة، أنا تقريبًا ميتة.

مرت برهة صمت كان ينظر خلالها لي قبل أن يقول بملامح جادة:

- آنسة جنات.. هل تقبلين الزواج بي؟

فتحت فمي لأتكلم فاستوقفني برفق:

- أدرك أن الوقت غير مناسب، جدك توفي البارحة، ظروفك غير مستقرة ومشاعرك أيضًا في مثل هذه الظروف لا يمكنها أن تكون مستقرة. لكن في بعض المواقف نشعُر أننا يجب أن نفعل ما نريد فعله حقًا ونقول ما نود قوله حقًا قبل فوات الأوان، وقد راودني هذا الشعور الآن. لا أطلب ردًا سريعًا، خذي كل الوقت الذي تحتاجينه للتفكير.
- أنت لا تعرفني جيدًا!
- وربما أعرفك أكثر مما تتصورين.
- ولا أنا أعرفك!
- اعرفيني.. خذي كل الوقت الذي تحتاجينه لتعرفيني، خذي كل العمر الذي تطلبينه لتعرفيني. أنا أفتح لك كل أبواب روحي؛ وأضع بين يديك كل المفاتيح التي تريدينها.

- أريد أن أعرف دون لف أو دوران: ما سر إصرارك على التسلل عبر نوافذ حياة فتاة لم تتكلم معها إلا منذ ثلاثة أيام؟
- طلبتُ يدكِ من جدك – رحمه الله– ثلاث مرّات، لكنّكِ لم تقبلي.

أخذت نفسًا عميقًا صامتًا وفكرت لحظة قبل أن أجيب:

- لم أرفضك أنتَ على وجه التحديد، بل رفضتُ شخصًا مجهولاً لا أعرف عنه شيئًا.
- ولم تحاولي أن تعرفي على الأقل!

ماذا أقول له؟ أقول أن كل الرجال الذين طلبوا يدي قبله كانوا متشابهين؟ وأن الذين ارتديت خواتم خطبتهم نسخ متشابهة؟ أنهم يجترّون نفس الأفكار النمطية المُتماثلة التي تمت برمجة عقولهم عليها منذ الطفولة ويكررون كلامًا متشابهًا بينما يظن كل واحد منهم أنه فريد عصره وزمانه؟ أقول إنني يئست من كل الرجال الذين يعيشون في هذا البلد وتربوا على سخافات وعاهات تحتقر المرأة بينما يقدسونها ويسمونها تقاليد وعادات؟

بتر صمتي بصوته قائلاً:

- أنتِ لستِ صامتة، أنتِ تتكلمين الآن كثيرًا داخلك، وأتمنى أن تسمحي لي بسماع ما تقولينه هناك.

ابتسمت.. نظرتُ إلى عينيه وقلت بشيء من الجُرأة:

- أنت مُختلفٌ عن الآخرين.
- ما هو المختلف على وجه التحديد؟
- كلامك.. الكلمات التي تقولها جديدة، غير متوقعة، وفي الوقت ذاته غير مُفتعلة لأنها تأتي مُناسبة تمامًا للوقت الذي تُقال فيه.

ابتسمت عيناه وقال بعد لحظة صمت:

- جنات.. أنا أحبك. ربما لا تعرفينني لكني أعرفك منذ أعوام طويلة.
- وربما كانت "جنات" التي تظن أنك تعرفها ليست "جنات" الحقيقية.
- لن تخسري شيئًا إذا سمحتِ لجنات الحقيقية وكمال الحقيقي بالتعارف قدر ما تشائين.

لم أقُل له أني أخشى خسارة "حُسن الظن" الذي خسرته مع آخرين قبله، قلت بلطف:

- الاقتراب أكثر مما يجب هو الأب الشرعي لآلام الابتعاد.
- نحن نسمع عن هذا التشاؤم العاطفي في كل مكان هذه الأيام، أتدرين لماذا؟ لأن الأغبياء صاروا يملكون هواتف ذكية يتبادلون بها عواطف صبيانية يتوهمون أنها حُبًا، وما أن تجهض تجاربهم غير الناضجة تبدأ أسطوانات التباكي على جدران فيسبوك، وتويتر، وإنستكَرام وغيرها من وسائل الإزعاج. نحن أكبر بتجربتنا الحياتية من تلك التصرفات. جربي حُبي، اسمحي لي ولو قليلاً أن أحبك ثم اختاري.

(11)

طلبت منه مهلة للتفكير.. السماح لأي رجل بالاقتراب أمر خطِر مهما بدت نواياه طيبة، فمعظم الرجال لا هم لهم إلا مصالحهم من المرأة، وحتى إن لم تكن له مصلحة في جسدها يخطف مصلحته من قلبها ومشاعرها ليُسلّي وقت فراغه ثم يهرب دون أن يدفع الثمن مثلما فعل بي خاطبي الأول، أو مُذبذبون لا يفهمون مشاعرهم الحقيقية ولا يميزون الفرق بين الحُب والإعجاب والاستلطاف، فيعيشون أوقاتًا يسمونها حُبًا مع إنسانة تتعلق بهم ثم فجأة ينقلبون عليها ويملّونها ويهجرونها عندما تدخل حياتهم امرأة جديدة مُحمّلة بإغراء مختلف مثلما هجرني وغدر بي خاطبي الثاني، أو أنانيّون يطلبون من شريكة حياتهم كل شيء ويتكاسلون عن تقديم أي شيء ويُطالبونها فوق هذا بطاعتهم والانصياع لكل أوامرهم ورغباتهم مثلما كان خاطبي الثالث، وأكثرهم لا زالوا يعيشون أوهام تصوّر لهم أن الرجولة تتجلّى في منع شريكة حياتهم عن فعل أي شيء ترغب بفعله مثل خاطبي الرابع.. لكن "كمال" يبدو مختلفًا عن هؤلاء، ويبدو مختلفًا أيضًا عن كل الأنماط الذكورية الأنانية المُتشابهة التي صادفتها ورفضتها من قبل، على الأقل يبدو استعداده لتحمّل المسؤولية واضحًا في مساعدته لي عند دخول جدي إلى المستشفى، كما أن

كلامه كلام رجل مثقف ثقافة حقيقية من ذاك النوعِ الذي يجعل منه إنسانًا واعيًا بخياراته؛ وليس مخلوقًا عشوائيًا يتصرف بطيش وفق دوافعه الغريزية كأكثر الشبان الذين صادفتهم في أعوامي الماضية.

جزء مني يقول لي: "جربي.. جربي مثلما يُجرب أي رجُل، فرصتك للتجربة دون قيود ما دمت قد تحررت من كل التزاماتك الاجتماعية بوفاة جدك"، وجزء آخر يقول لي: "ابتعدي.. ابتعدي قبل أن تُصدمي بصورة جديدة من صور الفساد بعد أن تطمئني إليه"، وجزء ثالث يقول: "خوضي اللعبة بقدم واحدة فقط، استمتعي بوقتك بحذر، وحين تشعرين بالخطر.. اهربي"، بينما يقول جزء خامس: "أعطِ نفسك فرصة دون أحكام مُسبقة كما قال، ربما ينجح الأمر هذه المرّة"، فيضيف جزء سادس: "أنتِ وحيدة وتشعرين بالملل وتحتاجين إلى الشعور بالأمان، افعلي ما يفعله أي رجل في موقفك واستغلي وجوده لشفاء روحك ثم يكون ما يكون"، عندها يرد جزء سابع: "لا تفعلي ذلك. ما الفرق بينك وبين أولئك الذكور الذين تحتقرينهم وتستهينين بهشاشة إنسانيتهم إذا ارتكبت خطيئتهم؟"، وأخيرًا حسم جزء ثامن الأمر بقوله: "لا تقرري الآن، انتظري حتى اللقاء القادم بينك وبينه قبل إصدار حكمك الأخير، أخبريه ببعض الحقائق المتعلقة بضعفك البشري، إذا كان رجلاً حقيقيًا سيبقى، أما إذا كان خدعة متنكرة في ثياب رجل فسيهرب بصمت وتتخلصين منه دون عناء".

هذه هي المرّة الأولى التي أكون فيها حُرّة حُرية كاملة في اتخاذ قرار مصيري كبير.. لا.. تذكرت.. هذه هي المرة الثانية بعد اتخاذ قرار التخلص من وظيفتي، لكن القرار هذه المرّة أضخم وأصعب لأن شخصًا آخر يتقاسم معي النتائج.

(12)

مر يومان دون أن يأتِ كمال أو يتصل، شعرت أن الوقت صار أكثر خواء وقلقًا، ووجدت نفسي أتساءل عن سر غيابه المفاجئ بعد اهتمامه الكبير. قلت لنفسي: "ليغِب كما يحلو له، لا يهمني، ليس بيني وبينه شيء"، لكنني تنهدت بعدها واعترفت أن وحدتي وجوعي للاهتمام والحنان في هذا الوقت كانت سببًا لتعلقي السريع به دون أن أفطن، قلت لنفسي: "مهما كان الإنسان مكتفيًا من كل شيء آخر تبقى حاجة روحه التي لا تكتفي إلا بروح أخرى تتفق معها، الحب غذاء الروح، ومثلما أن أجسادنا تعجز عن الحرمان الدائم من الطعام بعد مرورها بتجربة تسمم غذائي؛ تعجز أرواحنا عن الحرمان الدائم من الحب بعد مرورها بتجارب التسمم العاطفي".

في اليوم الثالث؛ عندما أدخلت موظفة خدمة الغرف طاولة الإفطار الذي طلبته إلى غرفتي وجدت عليها كعكة شوكولا أنيقة بثلاث شمعات صغيرة، وبجانبها علبة هدية مغلفة بغلاف وردي لامع وبطاقة على شكل وردة كاميليا حمراء كبيرة، فتحت البطاقة لأقرأ:

"كل عامٍ وأنتِ تُجمّلين هذا العالم بوجودك/ كمال نادر"

على الوجه الآخر من البطاقة وجدت بطاقة الأعمال الخاصة به مثبتة بشريط ذهبي لاصق. نقلت رقم هاتفه منها إلى هاتفي، وكتبت له رسالة قصيرة:

- شكرًا كثيرًا.. ممتنة على لُطفك.

رد دون إبطاء:

- الشكر لكِ على قبولها.

سألتُ مُجددًا:

- كيف عرفت تاريخ ميلادي؟

اهتز هاتفي بين يدي معلنًا عن اتصاله بي، نقرت على زر الرد فانهمر صوته سخيًا دافئًا:

- كنتِ تدونين تاريخ ميلادك تحت اسمك واسم الصف الذي تدرسين فيه على حقيبة المدرسة الابتدائية، وعمدت مرّة إلى الاقتراب منك عندما دخلتِ بقالة الحي وكأني سأدفع

ثمن شيء اشتريته بعدك عند طاولة البائع كي أقرأ اسمك، فعرفت الاسم، والصف، وتاريخ الميلاد.

- كنت تعرفني منذ ذلك الوقت؟!!
- أجل.
- لا أذكر أنك كلمتني.
- لم أكلمك ولا مرّة.
- لماذا؟
- كنت في ذلك الوقت جبانًا وخجولاً.
- ما الذي جعلك تحفظ التاريخ إلى اليوم؟
- لأني أحبتكِ من ذلك الوقت.

تجمّدت أصابعي وبدأت نبضات قلبي تتسارع، أنا أخفي تاريخ ميلادي عن الجميع منذ عشرة أعوام، وأنا بالفعل كنت ألصق على حقيبة مدرستي الابتدائية ملصقًا كتبت عليه اسمي واسم الصف الذي أدرس فيه وتاريخ ميلادي، لا يمكن أن يكون كاذبًا أو محتالاً وهو يحتفظ بمعلومة كهذه عني عشرين عامًا.. تجمدت أصابعي ولم أستطع كتابة حرف للرد عليه؛ بينما صوت يصرخ في رأسي بجنون: "أريد أن أراك.. أريد مقابلتك.. أريد أن أسمعك وأكلمك".. جاءني سؤاله وكأنه قرأ أفكاري:

- **هل ترغبين بزيارة المكتبة الجديدة التي افتتحت مقابل الشركة التي أعمل فيها؟ ربما تجدين كتبًا تحبينها هناك.**

استجمعتُ كل جرأتي في تلك اللحظة وأجبت:

- **أنا أرغب بزيارة مكتبتك أنت.**

(13)

أشرقت عيناه وشفتاه بابتسامة ما أن لمحني خارجة من المصعد إلى بهو الفندق، بدا آسرًا بتلك السترة الرمادية المخططة بخطوط سوداء طولية على قميص رصاصي وهو يقف في انتظاري، وتدفق تيار من الدفء من كلماته ليتسلل بنعومة إلى نوافذ روحي:

- **أوف.. كل يوم تصبحين أجمل من الذي قبله.**

كنت مندهشة وأنا أسير معه نحو السيارة من مشاعري بين اليوم والأمس، فلو أني سمعت منه هذا الإطراء قبل أسبوع لصفعته بحقيبتي على وجهه وصببت على رأسه سيلاً من الشتائم، لكني اليوم لم أملك إلا أن أشعر بالألفة تجاه صوته، كثيرون قالوا هذه الجملة لكثيرات في الواقع وفي الأفلام والروايات؛ لكنها لا تموت لأنها تحمل معها نيّة الرجل الذي ينطقها في كل مرة: صدق.. حب.. خبث.. تملق أو نفاق. نحن البشر أيضًا كالكلمات؛ نتكرر في أجساد متشابهة جيلاً

بعد جيل، وحدها رغباتنا وطموحاتنا ومشاعرنا ونوايانا تصنع الفرق بين إنسان وآخر.

التفت لي قائلاً بينما كفاه على مقود سيارته التي تقطع بنا الطريق:

- كان لطفًا كبيرًا منك أن تقبلي زيارة مكتبتي.

باغتتني ضحكة قبل أن أجيب:

- يُفترض أن أشكرك أنا على قبولك دعوتي نفسي إلى مكتبتك وليس العكس!
- ما دمتِ قد وهبتني فرصة صغيرة للاقتراب منك فقد قررتُ أن أكون حقيقيًا معكِ بلا حدود، وأنا أرى أن طلبك شجاعة تستحق التقدير في مجتمع معقد يضع حدودًا لا نهاية لها في العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة كالمجتمع الذي نعيش فيه.

صمت لحظات أفكر فيما قاله قبل أن أقول:

- يعجبني أسلوبك حين تتكلم بطريقة مثقفة.

- هل تعنين أن أسلوبي معقد؟
- أعني أنك تتكلم مثلي، الوحيد من بين كل الرجال الذين صادفتهم يتكلم مثلي.

بدا شاردًا لحظات رغم نظراته المركزة على الطريق قبل أن يقول:

- خطيبتي السابقة كان يضايقها أسلوبي في الكلام.

قلت بينما نظري يسبح في بحر زحام الشارع:

- ليس غريبًا.. كل الشبان الذين لبست خواتم خطبتهم من قبل كان يضايقهم أسلوبي في الكلام، منهم من اعتبرني متغطرسة، ومنهم من شعر في داخله أنه أصغر مني لأن هذه اللغة أكبر من قدرته على مجاراتها؛ فانقلبت مشاعره إلى غضب مستمر ومحاولات للتقليل من شأني، ومنهم من اعتبرني أفتعل هذا الأسلوب للتملص من الطبقة المجتمعية التي أنتمي لها، ومنهم من بذلت جهدًا فوق طاقتي للنزول إلى مستواه في التفكير والكلام وفي النهاية لم أعجبه. البنت منا تحاول إبهار الرجل الذي يعجبها بثقافتها ظنًا منها أن

هذا سيجعله يعتبرها إنسانة استثنائية ومختلفة فيفخر بها ويرفع من منزلتها في قلبه أكثر، ثم تواجه حقيقة أنه يكره هذا التفوق لأنه يريدها دائمًا أقل منه بدل أن يحاول هو إبهارها برفع مستوى شخصيته.

أدار عنقه نحوي مسائلاً:

- لم تندهشي من اعترافي لك بخطبتي السابقة!
- لماذا أندهش؟ كل منا كان يملك حياته الخاصة قبل أن نلتقي.
- ألا تريدين سماع القصة؟
- من الصعب مقاومة فضولي.
- قبل ستة أعوام؛ عندما عقدتِ قرانك للمرأة الأولى أكلني اليأس، ورضخت في لحظة ضعف لضغوطات شقيقتي الكبرى وآخرين من كبار الأقارب وخطبت فتاة ظننت أنها قد تكون قادرة على إكمال الحياة معي، لم تكن لي شروط كبيرة بعد أن فقدتك، كل ما أردته في ذلك الوقت هو إنسانة تقبل بي كما أنا وأقبل بها كما هي ونعيش بأكثر الطرق الممكنة راحة واستقرارًا، لكنني فوجئت أن لا شيء

في تصرفاتي أو كلامي يعجبها، هداياي لا تعجبها، أسلوب ضحكتي لا يعجبها، رائحة عطري لا تعجبها.. لم تستمر الخطبة أكثر من تسعة أيام، وهي الآن متزوجة ولها ثلاثة أطفال. تلك التجربة جعلتني أدرك مدى خطئي، وأعلم أن الزواج بلا حب لا يصلح لكل المخلوقات، فعندما نحب شخصًا بصدق نقبله كما هو دون تغيير، وبالمقابل نكون مستعدين لتغيير بعض تفاصيلنا بالتدريج لأجله عن طيب خاطر دون أن يطلب منا، ودون أن نشعر بالقهر أو الإجبار.

- كمال.. أنا لستُ طفلة لأتصوّر أنك عشت راهبًا كل أعوامك الماضية، نحن بشر وحتى إن لم نقترب من الآخرين سيقترب الآخرون منّا ويؤثرون في مسارات حياتنا. تجاربنا الإنسانية السابقة هي التي صنعت منا هذين الشخصين الموجودين الآن في هذا المكان، لا يمنعني عن الاستمرار في التعارف إلا أن تكون أنت الآن متزوجًا؛ لأني أفضل الإعدام على الزواج برجل متزوج، أو أن يكون لك أطفال

من زواج سابق لأن لا شيء في ظرف حياتي اليوم يجبرني على علاقة محفوفة بالتعقيدات.

(14)

بدت كفه الخالية من الخواتم، ذات الأظافر المقصوصة بعناية، تجمع بين النعومة، والصلابة، والثبات، وهي تدير المفتاح في قفل باب شقته الأسود اللامع. انفتح الباب لتتدفق رائحة بخور ممزوجة بصورة الأرائك السماوية ذات الطراز الأمريكي المعاصر حول ضلعين من أضلاع سجادة فارسية صغيرة يسودها لون الرمان لتقدم لوحة تشكيلية تنضح بروح الكبرياء. ترك الباب مفتوحًا على مصراعه بعد أن دخلنا وهو يقول بمرح:

- **اعتبري البيت بيتك، سأدخل لحظات وأعود.**

غاص جسدي في أحضان الأريكة المخملية الدافئة بتلذذ، أغمضت عيني تاركة لرئتي حق استنشاق الامتلاء بموجات عميقة من الهواء المشبع برائحة البخور، والدفء، والألفة، والسلام.. شعرت أن أمطار غزيرة عذبة بدأت تهطل على جسدي مدغدغة أصابع قدمي، ثم صاعدة إلى منتصف ساقي، ثم ركبتي، ثم يرتفع الماء إلى صدري

وفمي وعيني وشعري ليُغرق كل مسامي، وأني بدأت أذوب وأتحول إلى بقع من الألوان السائلة بلا ملامح.. أعادني صوته إلى عالمه متسائلاً بصوت منخفض:

- هل نمتِ؟

فتحت عيني واعتدلت في جلستي لأراه يضع صينية تزدحم بقوارير العصائر إلى جانب قدحين زجاجيين شفافين على طاولة بيضاء صغيرة تتربع على الزاوية التي تفصل بين الأريكة التي أجلس عليها والأريكة التي اختارها للجلوس. قلت دون تكلّف:

- بيتك يبدو جميلاً ومريحًا.
- الحمد لله أنه أعجبك.. إذا قبلتِ العيش معي فيه إلى الأبد تستطيعين تغيير كل ما فيه بالشكل الذي يناسب ذوقك.
- وماذا إن لم يُعجبك ذوقي؟
- سيُعجبني كل ما تختارين.
- ألا يبدو هذا مبالغ فيه قليلاً.
- ربما يكون مبالغ فيه بالنسبة لك، أو بالنسبة لشخص آخر، لكن بالنسبة لرجل مثلي عاش مع الوحدة طويلاً،

وشبع من تجربة مختلف أنواع الطعام، وتغيير الأثاث على مزاجه كل عامين أو ثلاثة، ودار مسافرًا حول العالم وشبعت عينه من رؤية أشكال وألوان الأثاث في الفنادق والبيوت المخصصة لاستئجار السائحين؛ يكون الأمر عاديًا لأنه أشبع احتياج الرغبة في اختيار مسكن على هواه والرغبة في اختيار أثاث وفق ذوقه، مقابل احتياجه لإكمال حياته مع إنسان يحبه ويختاره دون تدخل.

بدت عيناه متوقدتان ببريق داخلي يؤكد ثقته بكل كلمة يقولها، على عكس أولئك الذين صادفتهم قبله وكانت ألسنتهم تردد كلامًا ميتًا مستهلكًا حفظوه بعد أن سمعوه صدفة على لسان شخص آخر دون أن يفهموه.

- هل من الممكن أن تفتحي زجاجة عصير لنشرب معًا؟

قال بنبرة رقيقة مُهذبة، فأجبت:

- أنا الضيفة هنا، وصاحب الدار هو الذي يجدر به فتح زجاجات العصير للضيوف!

- بصراحة.. أخشى أن ترفضي الشرب إن اخترت الزجاجة بنفسي خوفًا من أن أكون أذبت فيها مُخدرًا.

ضحكت بعفوية قبل أن أسأل:

- ولهذا السبب تركت باب الشقة مفتوحًا؟
- أجل، لتهربي متى شئت بسهولة.
- لا تقلق يا كمال، لست ممن يخشين أن يكون الشيطان ثالثنا لأن تجربتي في الحياة جعلت قبيلة من الشياطين تسكنني وتستطيع تهجي سطور الكتاب البشري الذي أمامي. وعلى ذكر الكتب؛ أين المكتبة التي وعدتني بها؟

أمسك بجهاز تحكم صغير كان على المنضدة فظننتُ أنه سيُغير درجة حرارة الغرفة، وإذا بالجدار المُقابل المكسو بنقوش سُكّرية اللون يُفتح على مصراعيه ببطء؛ مُعلنًا عن وجود غرفة غطت الكُتُب جُدرانها الأربعة، وبقي ما بقي منها على الأرض، وفي منتصف الغرفة تمامًا أريكة حمراء طويلة احتل جانبيها صفين من الكتب السميكة. وقفت أمام هذا الفردوس بروح مبهورة الأنفاس.. عناوين بلغات أعرفها ولا أعرفها، مخطوطات رأت النور قبل أن أولد بعشرات الأعوام، كنز عتيق من مجلات ميكي، وسمير، وماجد، وسوبرمان تزاحم مُجلدات

ضخمة في السياسة والفن والتنمية الذاتية والسحر الأسود.. انطلق صوت جرس من مكان ما فقال:

- يبدو أن البيتزا قد نضجت في الفرن، سأذهب دقائق لأراها وأعود.

حين خرج وقع بصري على آلة لتشغيل الأقراص الموسيقية، ضغطت على الزر دون تغيير الشريط لينساب صوت "مروان خوري" صادحًا:

"علّمني كون متلك
كمّل هل كان ناقص لك
خلّي الأيام تثبت لك
ولآخر عمري اخلص لك.."

لفتت انتباهي كراسة رسم يُطل منها رأس قلم رصاص على الأريكة، وحين تصفحتها لم أكد أُصدق ما رأيت.. صوري مرسومة على كُل الصفحات: صورتي وأنا ممسكة بباقة ورود.. صورتي وأنا أنظر إلى يمامات طائرة في الأفق.. صورتي وأنا مع "كمال" على مقاعد طائرة.. صورتي وأنا معه تحت برج "إيفل".. صورتي وأنا أرقص معه بفستان

الزفاف.. صورتنا ونحن نقرأ معا جريدة واحدة.. صورتنا ونحن نتناول الشطائر على العشب في حديقة.. صورتنا ونحن نقطع النهر معًا داخل قارب واحد، وحين وصلت إلى آخر لوحات الدفتر عاد صوت "مروان خوري" ليكمل إنسيابه العذب:

"حبيبي..
يا حبيبي..
قصتنا شو غريبة
ما بتشبه حدا..
إنت المُبتدا.. والباقي خبر يا حبيبي"

ضممتُ الكراسة إلى صدري بكلتا يدي، وخرجت من الغرفة يقودني أنفي على أثر الرائحة الشهية.. وقفت عند باب المطبخ اتأمل خديه المحمرّين من حرارة الفرن وهو يقطع البيتزا إلى مثلثات متساوية بسكين.. رفع رأسه ليمسح جبهته الندية بطرف كمة؛ فارتسمت في عينيه ابتسامة شفافة عندما رآني وقال:

- تفضلي.. الغداء جاهز.

جلست إلى طاولة الطعام مخفية دفتر الرسم على حجري تحتها.. قال بنبرة مرحة وهو يغسل كفيه بعناية:

- بيتزا دجاج وسلطة يونانية وكعكة حلوة بالتمر والفستق، أرجو أن تُعجبك..

وأضاف ضاحكًا:

- ولا تقلقي؛ سأسبقك لتذوق كل الأطباق أمامك كي لا تظني أن الشيطان وسوس لي بوضع مادة مخدرة بين مقاديرها كما يحدث في الأفلام القديمة الهابطة.
- أنت طبخت كل ذلك؟
- أجل.. الطبخ هوايتي أيام العطلات.
- لا أظن أني ماهرة في الطبخ، آخر أعوام جدي لم يكن يقوى على أكل أي شيء غير الزبادي أو الخبز المغموس في الحليب الساخن، لم يكُن هناك من أطبخ له فكنت آكل أي شيء أو لا آكل شيئا أحيانًا.

رد بمرح:

- هذا أفضل، يُعجبني أن تكون زوجتي غير خبيرة بشؤون المطبخ كي نشارك الطبخ معًا ولا تطردني منه.

أحسستُ بدموعٍ تتجمع تحت جفنيّ وغُصة خفية تقف حاجزًا في وجه الكلمات التي أود قولها، سكبت نظراتي المشوشة على دفتر الرسم فسأل بصوت عطوف:

- ما الأمر؟ ألا يعجبك الطعام؟ نستطيعُ طلب وجبة من المطعم إذا كُنتِ....

قاطعت كلماته بإشارة نافية من رأسي، ووضعت دفتر الرسم على الطاولة ثم قلت:

- أظن أن هذا الشيء من حقي.

رد بعد لحظة صمت:

- ليس هو فقط، كل ما في هذا البيت من حقك، وصاحب البيت يتمنى أن يكون هو أيضًا من حقك وتكوني من حقه إلى الأبد.

مددت أطراف أصابعي لأمسح آثار دمعة سالت على شفتي، وتمالكت شعوري بخجل طفولي داخلي مفاجئ وأنا أرفع رأسي وأقول بصوت مبحوح:

- وأنا موافقة.

لأننا أحببنا بعضنا

(15)

وكأن كل تلك اللوحات المرسومة في دفتر الرسم بالقلم الرصاص دبت فيها الحياة وقفزت إلى أرض الواقع مُرتدية حركته وألوانه الحقيقية لتتحول إلى صور فوتوغرافية: صورتنا ونحن نرقص بتناغم في حفل زفافنا، صورتنا ونحن جالسان داخل عربة مُزيّنة يجرّها جواد أبيض بين شوارع الإسكندرية في الأسبوع الأول من شهر العسل، صورتنا ونحن نلقي قطعة نقدية في مياه نافورة "تريفي" الإيطالية في الأسبوع الثاني من شهر العسل، صورتنا ونحن تحت برج إيفل الباريسي في الأسبوع الثالث من شهر العسل، صورتنا ونحن نتجول بين الأزهار الصفراء بملابس البنجاب على مرتفعات "شيملا" الهندية في الأسبوع الرابع من شهر العسل، صورتنا ونحن نحتضن طفلتنا الأولى يوم قدومها إلى العالم في المستشفى، وصورتنا اليوم ونحن نتناول الشطائر والعصير على بساط بنفسجي في حديقة "ماجوريل" المغربية بعد خمسة أيام من احتفالنا بعيد ميلادها الثاني.

خلال هذه الأعوام الثلاثة اجتزنا معًا تجارب كثيرة ما كان أحدنا ليجتازها لولا وجود الآخر، كل واحد منا كان سببًا لاكتشاف رفيقه أجزاء خفية من ذاته لم يكُن يعلم بوجودها، واكتشفنا حقيقة مهمة؛

وهي أن الحب هو أن لا تشعر أبدًا بالملل مع شريك حياتك حتى بعد أن تحفظه عن ظهر قلب، وأن تتوق للاستيقاظ في اليوم التالي فقط كي تقضي يومًا آخر من حياتك معه.

- تمّت –

المؤلفة في سطور:

زينب علي البحراني/ سعودية من مواليد الخبر سكان مدينة الدمام/ مؤلفة روايات/ كاتبة مقالات/ مُعدة استطلاعات صحفية بين حين وآخر/ لها أربعة كتب سابقة مطبوعة وفي ذهنها ملايين الكلمات بانتظار الطباعة/ تهوى كل تفاصيل الجمال وكل ما يتعلق باكتشاف عوالم جديدة من الدهشة/ مؤمنة جدًا بالله ثم الحب والطفولة والجمال والخيال وانعدام المستحيل تحت السماء، وتتمنى أن تُساهم بكتاباتها في إبقاء هذه المفاهيم على قيد الحياة في زمن يركض نحو الجفاف الروحي.

المؤلفات:

- فتاة البسكويت- مجموعة قصصية.
- مذكرات أديبة فاشلة- جانب من سيرة ذاتية.
- على صليب الإبداع/ عندما يُفصح المبدعون عن أوجاعهم- استطلاعات صحفية ثقافية.
- هل تسمح لي أن أحبك؟- رواية.
- لأني أحبها/ بين يدي القارئ.

للتواصُل مع المؤلفة:

- **بريد إلكتروني:**
zainabahrani@gmail.com

- **صفحة فيسبوك:**

www.facebook.com/zainabahrani

- **حساب تويتر: @zainabahrani**
- **انستگَرام: zainabahrani**

"أن يركض قلبك حافيًا عشرين عامًا من الشوق وراء امرأة واحدة، أن تفكر بها، تحلم بها، تتنفسها وهي بعيدة عنك، ترى وجهها في شروق الشمس، وبزوغ القمر، وصفحات المرايا، وتراه في صحن طعامك وكوب شرابك وبصمات أصابعك، تسمع صوتها في كل أصوات الناس، وخرير المياه، وهديل البلابل، وصرير أقلامك على كل ورقة تكتبها، وتشم رائحتها في كل نسمة معطرة تداعب أنفك حتى وإن كانت في أقصى مشرق الأرض وأنت في أقصى مغربها. أن تراهق، وتكبر، وتنضج، وتتجاوز منتصف الثلاثينات من عمرك، وترى وتسمع وتشاهد وتجرب كثيرًا من الناس والمواقف والأحداث والأشياء والأماكن حتى التخمة وصولاً إلى الملل، وتظل رغم كل هذا، رغم كل هذا، رغم كل هذا غير قادرٍ على نسيانها أو التحرر من هيمنة حضورها الكثيف في روحك وكل خلايا كيانك.. إن لم يكن كل هذا حبًّا فماذا تسميه؟"

تصميم الغلاف: مصطفى الجزار